الشاعر شفيق حبيب
طائرُ الفينيق المنبعثُ بركانًا من رماد
ورمزٌ للتحدِّي والنصر
وديوانه : "العودة إلى الآتي" ، وقصائدُ مختارة

مقتطفات من كتاب : "إضاءات في الشعر الفلسطينيّ المعاصر"

(الجزء الثاني ١٩٩٨)

تأليف الناقد والكاتب الفلسطيني : الدكتور يحيى زكريا الآغا

إذا أردنا أن نقرأ لقلمٍ لم ولن يُقهر، ولسانٍ لم يُلجم، وفكرٍ لم يُسجن، ووجدانٍ لم يهتز، فعلينا بالشاعر شفيق حبيب، صاحب الاثني عشر ديوانًا، تجاوز بها حدودَ الزمان والمكان، وأسقط معادلاتٍ وأيدولوجياتٍ بشعرٍ ملتزم وصادق، خرج من بوتقة الظلم السياسي الذي دار حوله ظلمًا، أشدَّ عنفوانًا، وتجاوز محنة الإقامة الجبرية في منزله عام ١٩٩٣م بكل إباء، فلم يستسلم لأساليب القمع التي مُورست على جسده وقلمه، وتصدَّى لكل محاولات طمس الهُويّة الفلسطينية، فأصبح صوته جسدًا في وطن، وذاته وطنًا في جسد، فكان الصوتَ المعبرَ عن كل ما يختلج مشاعرَ وأحاسيسَ أبناء فلسطين الرافضين لكل مظاهر القهر والاضطهاد بأنواعه.

لا أريد في هذا المقام أن أتجاوز من خلال الكلمة ذاتَ الكلمة، فعندما نقول بأنه وطنيٌّ، فإننا نعني بذلك، وما دواوينه التي صدرت له إلا شاهدًا حيًّا مازالت تنبض بالحياة، فكم هو عظيمٌ في التزامه وانتمائه ومنهجه وفكره، فقدراته الفكرية متميزة، وأحاسيسُه مرهفة، ولغته ثورية نابضة، وإيحاءاته هادفة، ورمزيته شفافة وقوية، نوَّعَ في بنائية النص، وخرج عن دائرة البحور الشعرية الموحدة، إلى الشعر المعاصر، وأبدع في كليهما أيَّما إبداع، لإيمانه بأن المضمونَ يكون الأكثر التصاقًا بالتجربة.

كتب النصَّ؛ كما سنرى؛ ممزوجًا بكل أحاسيسه، وبعرقه، وبدمه، فلم يكتب في هواء، بل كل ما كتبه - حتى الذي أُحرق من قِبل السلطات الإسرائيلية - ما زال محفورًا على أسوار عكا وكنائس فلسطين شاهدًا بفلسطينيته، وبعروبته، وانتمائه للأرض، والوطن والشعب والمستقبل.

إننا لا نتجاوز حدودَنا أمامَ هذا الشاعر، بل نتلمس خطواتنا معه على أمل أن نسبرَ تجربةً، وولادةً جديدةً لنصٍّ جديد.

إذا كان هناك من شاعر يُطلق لنفسه العنان ليقول شعرًا فهو شفيق حبيب، لما يتميز به من موسوعية معجمية متميزة، ونبش في التراث قائم على ربط الماضي بالحاضر من أجل المستقبل، يعتمد فيما يقول على المباشرة، وعلى الإيحاء بالرمز أحيانًا، لتبرز التجربة باعتبارها حالةً من الوجد تجعل المستحيل ممكناً، والممكن واقعًا.

الوطن، الأرض، المدن، القرى، الشهداء، السجون، الحياة... كلها هموم يعيشها مع شعبه، وظواهر تحرِّك فيه ثوراتٍ عارمة، لا تتركه إلا بعد أن يفرغ من تجربته الشعرية، وبعد أن تلتحمَ ذاته بالحدث لتكوِّنَ النصَّ الشعريَّ بصورته التي يريدها.

كلما تعمقنا في دواوينه نجده يؤمن بحقيقة رائده يتخذها منهجًا في بنائية النص، وتتجلى في أن الشعر الصادق والملتزم النابع من رؤية شعورية صادقة، يفرض وجودَه بأي شكلٍ كان، وبأي لغةٍ كانت، لهذا وجدناه يلوِّن في القصيدة الشعرية، فتارةً يسير على النظام التقليدي، وتارةً على نظام الشعر التفعيلي.

وإذا كانت المواجهة في قصائده، عنصرًا بارزًا في النص، فإن الدفاع والتصدي، هي اللغة الأقرب للمواجهة، لأنه لم يشعر في لحظة من لحظات الزمن بضعفه، لهذا نراه دائمًا يصوِّبُ سهامَه دون هوادة، فقصائده ثورة عارمة، وألفاظه ذات معانٍ صافيه، وصُورُه ذات دلالات متميزة، ورموزه تحملُ إيحاءاتٍ عميقة.

دواوين الشاعر التي بدأت بالصدور منذ عام ١٩٧٢، وحتى عام ٢٠٠٥؛ تمثلُ رحلة الشاعر مع الكلمة والحق والثورة والوطن والأرض، فعالمه الفكري الضبابي من جانب الاحتلال، جعله أكثر التزامًا، وقد حال بالكلمة أن يقشع ضباب الفكر، وانتصر، فأشرقت شمس العدل والحق، في زمن غُيِّبت فيه كل القيم والمبادئ، وبزغ شعرُ الشاعر وهو محمَّل بأوجاع وهموم

الوطن، فأضاء خلال مسيرته الشعرية خمسة عشر قنديلاً ومازال، تلك هي نبضات الشاعر، وهويته، ومازال نبض الحياة يبعث رؤى جديدة موضوعية وفنية، ولقد استشعر بوقوع الانتفاضة قبل وقوعها، فنظم العديد من القصائد حول هذا الموضوع، وسُجن جرَّاء إحدى قصائده التي ألقاها في إحدى الندوات الأدبية والتي تنبأ فيها بظاهرة الانتفاضة.

والشاعر أولاً وأخيرًا، وطنيٌّ في نفسه وفي شعره، قوميٌّ في انتمائه، وإنسانيٌّ في فكره، بسيطٌ في قوته، قويٌ في بساطته، لا يلين له جانب، مهاجم ومدافع عن الحق، لا يخشى في الوطن سجن العدو، ولا الإقامة الجبرية.

هذه رؤية في شاعر لا يلين له جانب، وفي كلمة تصيب ولا تخطئ، وفي بنية فنية متجددة، قادرة على عصرنة اللفظ، لتناسب المرحلة.

وعند قراءتي لدواوين الشاعر كاملة، قررت أن أغيِّر في منهج الكتابة لأسباب، منها أن الشاعر سُجن فترة من الزمن في التسعينيات، فأردتُ أن يتعرف القارئ على الأسباب التي جعلتْ المحكمة العليا في دولة "الديمقراطية" تحكم عليه بهذا الحكم، ثم نتعرف على القصائد التي كانت السبب في سَجنه، وحيث أن عددها قليل، فكان لابد من ديوان آخر، فقررتُ الوقوف على ديوان " آهِ.. يا أسوارَ عكا !!"، ولكن تراءت لي فكرة أخرى

تتمثل في دراسة قصيدة من كل ديوان صدر للشاعر، ليقف القارئ على منهجية الشاعر الموضوعية، متتبعين الترتيبَ الزمنيَّ لدواوينه، وبالتالي نكون قد وقفنا على ما يوازي ديوانًا شعريًا، ولكن من خلال مسيرة حياته الشعرية.

أما ديوان " آهِ.. يا أسوارَ عكا !!" فستتمُّ دراسته في الجزء الثالث الذي سيضمُّ عددًا من شعراء فلسطين.

"في قفص الاتهام"
وقائع معركة حرية التعبير ضد سياسة القمع المنهجي
"العودةُ إلى الآتي"

لا أحد منا ينسى يوم اندلاع شرارة الانتفاضة التي امتدت لتشمل كل فلسطين، سواء مشاركين أو متضامنين، ولا نستغرب بأن يساهم الأدب في إشعال هذه الانتفاضة، وإذكاء لهيبها، خاصة من معظم شعراء فلسطين داخل الخط الأخضر، لتظهر قصائد عديدة، ودواوين مختارة تمثل هذه المرحلة، فكانت الإضاءة الحقيقة التي أضاءت درب الأطفال في عتمة الليل يتصيدون فيها قافلة من الجنود بحجارة من سجيل، ولننظر إلى أحد الشعراء (شفيق حبيب) الذين عاشوا الحدث ببصر وبصيرة، فيقول في قصيدة له بعنوان : "يا قائد الركب..!!"

عـــامٌ يمـــرُّ وفي عينيـــكَ إصـــرارُ فالمجـدُ يعلـو جبينًـا زانـهُ الغـارُ
لا تسـألوا: مـن تـرى هـذا الـذي انفجـرتْ مـــن راحتيـــهِ بـــراكينٌ وإعصـــارُ
هـــذا الملـــثمُ لا تـــدري مناقبـــهُ إلا ســـوائبُ جـــيشٍ راحَ ينهـــارُ
بوركـــتَ يـــا حجـــرَ الأطفـــال منطلقًـــا في وهْـــجِ عزمِـــكَ أخبـــارٌ وأسْـــرارُ
بوركـــتَ يـــا حجـــرَ الأطفـــالِ مؤتلقًـــا مثـلَ الشـهابِ ففيـه النـورُ والنـارُ

الشاعر كما نرى لا يتعصب لقديم أو جديد، ويرى أن الصراع بين المجددين والمحافظين لا طائل منه، لإيمانه المطلق بأن الشاعر الجيد هو القادر على إعمال التأثير المطلوب بأي شكل كان، وقادر على مخاطبة المشاعر والأحاسيس والفكر دون تزييف، أو ترقيق أو تخشين، لهذا رأيناه في الأبيات الخمسة السابقة، أو في رائيته التي أبدعها بعد عام من اندلاع الانتفاضة، يظهر ثلاث مرتكزات أساسية :

المرتكز الأول: الاستمرارية في النضال، والثاني: صورة الطفل الملثم، وقدرته على المواجهة، والثالث : صورة الحجر وهو ينطلق من يد طفل، يحمل معه الأمل والقوة رغم ضعفه.

لقد ربط الشاعر بين الألفاظ ودلالتها برباط وثيق، فعندما ذكر الانتفاضة قال : "الغار، وإعصار" وعندما تعامل مع المحتلين قال : "ينهار"، وعندما قال الحجر ذكر بأنه يحمل "أسرارًا ونارًا". هذا التوافق بين الألفاظ ودلالتها صاحَبَه توافقٌ في قافية النص، حيث استخدم الشاعر حرف الراء باعتباره من الحروف البسيطة، وابتعد عن الحروف الخشنة، أو ذات الطنين العالي. هذا التوافق بين مكونات النص صاحَبَه تلوين في العاطفة من خلال التنويع في استخدام الكلمات، فتارةً يستخدم الأفعال، وتارةً الأسماء، مع توظيف الصور البلاغية لخدمة الفكرة، من ذلك، أظهر الشاعر اللغة الجديدة للحجر، ودلالته،

ويحق لنا أن نعتبره جزءًا من الأساطير، لأنه حقق معادلة غائبة وغير متوقعة، مقارنة بالبندقية التي لم تحقق أي توازن، ولكن الشاعر هنا أظهر الحجر مع الحق، وهنا كان تأثير الحجر في يد الطفل الفلسطيني مقاومًا ومهاجمًا، دون أن يخشى البندقية، وهذا جمال الإبداع. ووعي الشاعر برز في استخدامه الدلالات المعنوية دون غيرها في هذا الموقف، لأن كل الظروف المحيطة تتطلب هذا الموقف:

يـا أيهـا الغاصـبُ المحتـلُّ سـوف تعـي ... أنَّ الـديارَ لنـا.. والـدهرَ دوّارُ
اسـجنْ رجـالي فمـا لانـت عزائمُنـا ... يحـدو الرجـالَ إلى السـاحات إصـرارُ
واهـدمْ بيوتًـا وشـرّدنا فـإن لنـا ... تحـت الثـرى مهـدَ أجـدادٍ هنـا ثـاروا
خطّـطْ لنفـي رجـالي السُّـمر مـا خمـدتْ ... نـارٌ، وإن نُفِيَـتْ في الليـل أحـرارُ
إن الرجـالَ إذا مـا استشـهدوا خَلـدت ... أفعـالهم أبـدًا.. وانـداحَ أشـرارُ
إنْ مـزّقَ الحقـدُ طفـلاً ننتصـبْ شممًـا ... فالطفـلُ في ليلنـا نجـمٌ وأقمـارُ
إنْ تسـألوا كـلَّ شـبرٍ في مَرابِعِنـا ... كـان الجـوابُ لأهلـي هـذه الـدارُ
لـو خُيِّـرَتْ أرضُـنا عـن ظلمِكـم بـدلاً ... لكانـت الأرضُ للشـيطانِ تختـارُ

نداءٌ موجَّهٌ للمحتلِّ يُعلن بأن الأرض لنا، وما تواجدكم المؤقت، سوى مرحلة ولابد أن تزول، فهو ينقلنا بوعيه التام إلى أسلوب المحتل "الغاصب" ثم إلى "المحتل" والتي تعني السيطرة بالقوة على الأرض، وهنا يبرز الصوت الأقوى من الشاعر، ليقول: إذا كانت الأرض احتلت واغتصبت، فهذا لا يعني بأن الديار لهم،

فصاحب الأرض لا يغتصب أرضه، ولا يحتلها بالقوة، وهذه دلالة على واقع طارئ ومغلوط، ولابد أن يتحوّل هذا الواقع المؤقت عن مساره، فاستند على القوة، والقوة لا يمكنها الاستمرار مقابل الحق التاريخي والحضاري لأصحاب الأرض، لهذا جاء الشاعر بمرتكز يبرز بأن هذا الوضع مغلوط، فقال : "الدهرُ دوّارُ "....

إن ولوجَ الشاعر إلى الدهر، أو اعتماده على الزمن، يرجع للواقع العربي في هذا الفترة العاجز عن تغيير الواقع، ولكن في النهاية ستتصحح الأمور، وبالتالي سيتحول الحاضر إلى ماضٍ، والواقع المتمثل في الضعف إلى قوة تغيّر المعادلة.

الشاعر لا يرى في الأفق القريب ما يبشر بخير، ولهذا فتح آفاقًا جديدة أمام الشباب لينهضوا من عثرتهم ويبتعدوا عن الاستكانة: الأولى : الأساليب القمعية واللا إنسانية التي يمارسها العدو ضد أبناء فلسطين، ويقابلها صورةٌ معنوية تواجه هذه الصورة بكل قوة وحزم، فنحن إذن أمام قوله "اسجن رجالي" والسجن كما نعلم ظاهرة استحدثت منذ استعمار فلسطين، ثمّ نمت وتفاقمت كلما اشتد الصراع مع العدو، فيلجأ المحتل إلى الزج بكل الشرفاء من مدنيين ومثقفين وشعراء وكتاب، وثائرين إلى السجون، ظانًا منه أنه قد تخلص من "شرورهم"، فقد فُتحت سجونٌ جديدة، ومعتقلاتٌ من خيام في صحاري فلسطين الباردة

والحارّة، من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة من المعتقلين، لتمارس عليهم صنوف التعذيب المنظم، وغير المنظم، من أجل اعتراف ضمني بمشاركة في ندوة، أو إلقاء حجر، أو نظم قصيدة تحرِّض على الاحتلال، فهل السجن يحطم الإصرار في العزائم؟ ويقيّد الفكر؟ ويقتل الوطنية المتأججة في النفوس؟ ويُنسي الحق في الأرض؟ ليأتي تعبيرُ الشاعر سريعًا وواضحًا، بحيث لم يترك مجالاً لأي لون من ألوان التفكير، "فما لانت عزائمُنا".

- أما الفعل الثاني "اهدم بيوتًا"... وهنا يبرز الشاعر الصورة الأخرى للوجه القبيح للمحتل، والسؤال لماذا هدم البيوت؟ وهل يُسمح لمن هُدم بيته ببناء بيت بديل؟؟؟

هناك سببان ونتيجةٌ لهدم البيوت:

السببُ الأول: إذا ثبت أن صاحب البيت، أو أحدًا من أفراده له صلة بعملية فدائية.

والسبب الثاني: إذا ثبتت مساعدته لأحد من الفدائيين.

والنتيجة هي إلقاء صاحب البيت خارج الوطن، وليكونَ عِبرة لغيره.

وهنا نتساءل، هل الذي يدافع عن أرضه ووطنه، ويقاوم المحتل يكون جزاؤه هذا العمل؟.. ثمّ يأتي الرد سريعًا كما جاء في البيت الأول: "إنَّ لنا.. تحت الثرى مهدَ أجدادٍ هنا ثاروا".

- أما الفعل الثالث "خطط لنفي رجالي" هذه صورة قديمة حديثة، يستخدمها الاستعمار في أنحاء الوطن العربي، حيث ينفي الثوار والشرفاء خارج الوطن، وها هو العدو الصهيوني يمارس هذه الصورة على أبناء فلسطين، في محاولة لتهدئة الأوضاع، باعتبار أن هؤلاء يمثلون الزعماء النشطين للثورة ضد المحتل، ولا أظن بأن هناك قانونًا وضعيًا في العالم يسمح ويقر بنفي المواطن صاحب الأرض عن أرضه، لكن هذا نجده في القوانين الصهيونية الوضعية، ولكن هل النفي يُقابَل بالاستسلام، ويأتي الرد على لسان الشاعر: "ما خمدت نارٌ وإن نُفِتْ في الليل أحرارُ ..."

وإذا كانت الشهادة هي الوجهَ المشرقَ في مسيرة المناضل، والإطلالةَ الأكثر إشراقًا في القصيدة، فإنها لن تكون النهاية، بل بداية حياة جديدة، وهذا ما رأيناه في الحلقة الرابعة والأخيرة من حلقات التحدي والمواجهة مع العدو، فما دامت الشهادة معناها الخلود، فهي رسالة إلى كل الشرفاء للمواجهة والتحدي، حتى يتم إزالة العدو عن الأرض.

التتابُع المُوَفق من الشاعر في إبراز ما يحدث "السجن - الهدم - النفي - الاستشهاد" كلها ظواهر لبعث الهمم في النفوس، وإلهاب الحماس، وإظهار القوة الكامنة في النفوس.

ويتابع الشاعر في الجزء الأخير من النص إبراز صور جديدة تتصل بهذا الطفل الجديد:

يـا قائـدَ الركـب والأغصـانُ في يـدهِ ابْـنِ السـلامَ علـى أنقـاض مَـنْ جـاروا
وارفـعْ مـداميكَ بيـتٍ تلـك قلعتنـا تحوطهـا مـن قلـوب الشـعب أسـوارُ
هـذا دمـي، صـارخٌ في وجـه هـادرهِ في ثـورة الحجـرِ المعطـاءِ هـدّارُ
فالمجـدُ للشـعب مـا أعطـاك يـاوطـني والخِـزيُ للمـاكر المحتـلِّ والعـارُ
إنـي بحقـي وإيمـاني أنـازلهم هـذا سـلاحي مقـاليعٌ وأشـعارُ

هذه الصور الجديدة، ارتكزت على الصور الاسمية والأساليب البلاغية، ومنها النداء، لاستحضار ما هو معلوم، وما استحضاره في هذا المقام لصورة الطفل، إلا لكونه القائد الحقيقي في هذا الزمن.

إن الشاعر في هذا المقام استطاع أن يبرز الطفل بصورتين، الأولى بأن الطفل داعية سلام، وليس داعية حرب، ولما لم يجد بُدًّا من أن تمتد اليد الأخرى إليه، فلم يجد سوى الحجر والمقلاع.

والصورة الأخيرة ترتكز على الحجر، باعتباره الأكثر تكثيفًا في النص، فأصبح الحجر الناطق الرسمي الجديد والوحيد خلال هذه الفترة، ومادام ذلك فستعلو راية الوطن، وأما المحتل فله

الخزي والعار، وما قتالنا بالمقلاع والحجر، رغم ضعفهما، إلا أن الحق بالأرض، والوجود والحياة الحرة الكريمة وراء قوة هذا الحجر.

هذا العشق الأزلي للفلسطيني لأرضه وحقه، دفع به لمواجهة كل المحاولات لطمس هويته وماضيه وحاضره ومستقبله، فاتخذ من الحجر أداة للمواجهة، فابتعد الشاعر عن لغة البكاء والندم، إلى لغة جديدة تتناسب وعصرية الزمان والحدث.

• • •

ونقلب الديوان، لنقف أمام قصيدة ربما تكون واحدة من القصائد التي تسببت في اعتقاله ومصادرة دواوينه، وهي بعنوان "نشرة إخبارية" حيث يقول في مقدمتها:

(منذ مولد الانتفاضة.. وعلى مدى أربع وعشرين ساعة يوميًا، يتقيأ مذيعو الإذاعة والتلفزيون في آذاننا.. وعلى عيوننا نشرتهم الإخبارية التالية)

أما النصّ فيقول:

سيداتي ! آنساتي ! سادتي !!
نشرةُ الأخبار يتلوها غرابْ...

فماذا تقول النشرة التي تحمل إلينا صورة المهزلة العصرية، يخرج علينا المذيع بقوله:

طاردتْ قواتنا الأطفالَ من بابٍ لبابْ

قتلتْ منهم ثلاثهْ...

بعد كرٍّ، بعد فرٍّ، ومجيءٍ وذهابْ

ألقتِ القبضَ على قائدهم "زين الشباب"

عمرُه سبعةُ أعوامٍ، ومازال طليقًا

لم يذق مُرَّ العذابْ...

فنقلناه إلى السجنِ

وعادَ الجيشُ بالنصر المُهابْ

أتساءل هنا:

أين حقوق الطفل الفلسطيني؟! أليس له الحق بأن يعيش حرًّا كريمًا؟!

وكيف يُطارَد هذا الطفل من قوات مدجَّجة بالسلاح ؟! ولماذا يُطارَد ؟ ولماذا يُسجَن ؟!

وإذا كان هناك من قصيدة يمكن أن نطلق عليها القصيدة المتلفزة، فإن هذه القصيدة تمثل هذا الموقف، فالشاعر لم يتخيّل، وإنما يتفاعل مع الحدث، والواقع، وينقله إلينا بأمانة وصدق، أو بمعنى آخر يحوّل الماضي وإرهاصاته، بين يدي طفل بحجر ومقلاع، من أجل غدٍ ربما يكون أكثر إشراقًا.

طفل، جيش، حجر، مقلاع، رصاصة، وتكسير عظام، وبعد كرٍّ وفرٍّ ألقت القبض على قائد المنتفضين، وإذا به في السابعة من عمره، وهذه هي الصورة الجديدة في الشعر الفلسطيني والعربي في زمن عزّ فيه الكثير مما يجب أن يكون عليه الحال.

لكن لماذا كان الطفل هو البطل الحقيقي في معركة الانتفاضة؟ إن هناك الكثير من الأسباب، لكنها تتمثل في بوتقة واحدة، وهي رفض أطفال فلسطين الذين ولدوا في زمن الاحتلال الإسرائيلي لهذا الاحتلال، حتى تصل حلقة الرفض إلى الكبار والشيوخ، وصولاً لتبليغ رسالة الضمير والإنسانية إلى العالم، بأن هناك أطفالا يتعرضون للموت لأنهم يدافعون عن أوطانهم، فما موقفكم من ذلك؟

وإذا كانت الصورة التلفزيونية فيها حركة، فاستخدم الأفعال لتتوازى مع وقع المطاردة والسجن " طاردت ـ قتلت ـ ألقت ـ لم يذق ـ نقلناه ـ وعاد" هذا ساعد على تنمية الحدث داخل النص، وأبعده عن البطء، وألزمه أيضًا عدم الابتعاد عن

المشهد، لأن الصورة المرئية أقوى من الصورة الخيالية في هذا الموقف.

وبعد فترة يخرج علينا المذيع بخبرٍ جديد يظهر قدراته وإمكانياته في مواجهة الأطفال، فالصورة الأولى حقق النصر بعد اعتقاله، وسجنه الأطفال !، والصورة التالية تقول:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
حين دقّتْ ساعةُ الصِّفرِ التي تدعو
لتسديدِ الحسابْ
هاجمتْ قواتنا في الليل " أوكارَ الذئابْ "
فقأت أعينَ سته...
قتلت بعضَ "الكلابْ"
ثم عاد الجيش بالنسوة مبهوراً بنصرٍ واستلابْ
فنقلناهنَّ إلى السِّجنِ
وقد أضحى الدّم المسفوحُ منهنّ خضابْ...

لقد أبرز الشاعر أسلوب القمع الهمجي الذي يستخدمه الجنود ضد أطفال فلسطين، ففقأت الأعين، وقتلت البعض، واعتقلت بعض الفتيات، وكأنه حقق النصر العظيم.

الأسلوب الذي يستخدمه الشاعر في هذا المقام، أقرب إلى تحقير الذات العسكرية الإسرائيلية من خلال تصرفاتهم، وكيف

يشعرون بنشوة النصر عندما يحققون بعض "الانتصارات" على الأطفال، ولكن هل الصورة انتهت؟...

وبعد لحظات يخرج علينا المذيع الإسرائيلي ليعرض علينا موقفًا جديدًا، أو مشهدًا مأساويًا جديدًا :

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
خرج الشعبُ إلى الساحات سيْلاً
غاضبًا... كالبحر إنْ ثار العُبابْ
لا ترى قواتنا إلا صخوراً وزجاجًا وحرابْ
حصدت قواتنا سبعةَ أفرادٍ وعادتْ
تحملُ الأسرى إلى التحقيقِ يتلوه العذابْ....

يتضمن خروج الشعب إلى الساحات ليعلن الرفض، ويواجه الاحتلال الصهيوني، فكان الردُّ قاسيًا وعنيفًا، فقتلت القوات سبعة من أفراد هذا الشعب، عمليةُ الإبادة هذه تظهر سلوك الجيش الإسرائيلي في قمع الانتفاضة، والمذيع لا يجد حرجًا في إذاعة خبر القتل والاعتقال، وكأنه يتباهى بذلك، أو يقوي من معنويات الجيش التي أخذت تتململ من مقاومة الأطفال.

ولم يكتفِ المذيع بنقل هذا الخبر، بل أردف قائلاً، بأننا اعتقلنا منهم الكثير، ومارسنا التعذيب عليهم. ونقف هنا مع الظلم الذي يتنامى داخل النص عندما ينقلنا الشاعر من فكرة إلى أخرى،

مستعينًا بألوان شتى من أساليب التعذيب، مستندًا على موسوعيته المعجميّة المتميزة.

وبعد لحظات، إذ بالمذيع يعود إلينا مرة أخرى، يحمل إلينا نبأً جديدًا:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
أصدرَ القائدُ أمرًا لا يُعابْ :
اجمَعوا كلَّ الشبابْ،
انسِفوا أوكارَهم بيتًا.. فبيتًا.. واجعلوا منها خرابْ..
شرّدوا أطفالهم... لا ترحموهم، شرذموهم بين أرضٍ وسحابْ
نحن شيَّدْنا الزنازين لهم فوق الصحاري في اليبابْ
فامنعوا عنهم طعامًا وشرابْ
غرفُ التحقيق تدعوهم، فمن يدخلها لا يرتجي منها الإيابْ...

هذه اللوحة التي ساقها الشاعر تكرَّرت زمن الانتفاضة في كل المدن الفلسطينية، فبعد القتل الفردي والجماعي، تبدأ رحلة الاعتقال الجماعي بناءً على أوامر القيادة، ومن ثمّ يتبعها نسفٌ لمنازلهم، وسجنُ الآخرين ونفيٌ لأصحابها خارج الوطن، فبالإضافة إلى إظهار أساليب القمع، يريد أن يبرز "إرهاب الدولة" أي أن الدولة هي المسئولة.

ولا نبالغ كثيرًا إذا اعتبرنا أن هذا اللون من الشعر تحوَّل من مجرد لوحات وطنية إلى قصائد سياسية من النمط العالي.
الوطنية كما نعلم هي التي تتناول قضايا تتعلق بالمواطن والأرض والعشق للوطن، ولكن إذا كان الأمر متعلقًا بالاحتلال أو بممارسات لا إنسانية فإنه يخرج إلى النمط السياسي.

لنقفْ هنا على الأفعال التي ساقها الشاعر " اجمعوا، انسفوا، اجعلوا، شرّدوا، لا ترحموا، شرذموا، امنعوا " وجميعها تتصل بأساليب العدو ضد أبناء فلسطين، وظَّفها الشاعر من خلال انعكاس المرئي وتفاعله مع الشاعر، ليبرز الصورة بشكل دقيق.

وإلى جانب الموضوعية المتميزة في تلك الأسطر، رافقتها موسيقى انفعالية متنوعة جاءت من خلال الأفعال المختلفة المعنى، والمتساوية في الدفقات الشعورية، ليهدف من ورائها خلق موازنة بين الحالة الانفعالية التي يعيشها الشاعر مع الواقع.

أسلوب المباشرة الذي استخدمه الشاعر في نقل تجربته مبتعدًا عن الرموز، يجعلنا نستنتج من وراء هذا، بأن الشاعر صريح جدًّا، ولا يواري الحقائق خلف ألفاظ معجمية مفصحة، حتى لا يحمِّل اللفظ أكثر من معناه الذي ساقه، لأن اللفظ ذاته كافٍ لأداء الغرض ومن خلاله يحرِّك المشاعر.

ويتابع الشاعر نقل وقائع الحدث على لسان المذيع في رسالة إخبارية جديدة:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!

جاءني هذا الكتابْ

أصدرَ القائدُ أمرًا عاجلاً، والأمرُ فورًا يُستجابْ:

كسِّروا السيقانَ والأطرافَ بل دُقّوا الرقابْ

هشِّموا عظمَ الجماجمْ

طاردوهم...

واتركوهم جيفًا تلعقُ من هذا الترابْ.

الأمر الذي صدر، تمَّ تنفيذه بأسرع من البرق، فقد رأينا على شاشات التلفاز كيف تم تنفيذه وبدقة متناهية، ورأى العالم أجمع هذا الأمر كيف مورس على الشباب الفلسطيني من الجنود "البواسل"، ولقد كان الهدف من تكسير العظام والأطراف، وتهشيم الجماجم، الحدّ من الانتفاضة، ولابد من تكسيرها حتى لا تلقي الحجارة، وكذلك الأرجل حتى لا تستطيع الحركة، فنحن أمام أمر لا إنسانيّ يصدر من قائد عسكري لا ينتمي إلى الإنسانية البتة.

توالت هنا صور الأساليب القمعيّة التي يستخدمها العدو، ولكن هل حدّ هذا من استمراريتها؟.. كل الدلائل تشير إلى أن صاحب

الحق لا يمكنه أن ينام وأرضه مغتصبة، وهذا ما حدث، وسيبقى إلى أن تتحرر الأرض.

وننتقل إلى صورة أخرى:

سيداتي! آنساتي! سادتي!!

داهمتْ قواتنا بالأمس وكراً بعد ساعات الغيابْ

واستمرتْ حملةُ التنظيف حتى مزّقَ النورُ الحجابْ

صرّح الناطقُ - والناطقُ ذو رشدٍ ومن أهل الصوابْ

قالَ: إن الأمن أضحى مستتبًا في الحواري

والبراري والشعابْ

.....

.....

جيشنا

ألغى مراسيمَ الجنازاتِ وأخفى جثثَ القتلى

فما يُجدي إذا صلى عليها الأهلُ أو بعضُ الصحابْ ؟؟

لوحة ذكرتني تمامًا بما شاهدته في مدينتي " خان يونس " بتفاصيلها ودقائقها، وأبعادها، حيث داهمت قوات الاحتلال منزل أحد المقاتلين منذ الساعة الثامنة مساءً، وحتى الساعة الرابعة فجرًا، وكانت محصلة المواجهة، الشهيد الوحيد الذي

فرغ منه الرصاص، وبعد الوصول إليه، لم يتركوا جزءًا من جسده إلا وأعملوا فيه الرصاص، وقد شارك في العملية قرابة المائة جندي بمختلف الأسلحة اليدوية، وقتل لهم جنديان، وجُرح آخرون، وبعد العملية قامت القوات الإسرائيلية بحملة اعتقالات واسعة خوفًا من تزايد حدّة الغضب، إذن فنحن أمام صورة متكررة وواقعية، في كل المدن الفلسطينية، لنجد أن الخوف لا يقتصر من الأحياء،بل من الشهداء، وهذا ما رأيناه في تلك المواجهة.

سيداتي! آنساتي! سادتي!!
هاجمتني.. أكلتْ مني لساني
ملأتْ عينيَّ أسرابُ الذبابْ
ربما أخطأتُ في الصّرف...وفي النحوِ
وأرقامِ الحسابْ
نشرةٌ قادمةٌ ينقلها أيضًا غرابْ.....

إن أهم ما تتميز به القصيدة اعتماد الشاعر على اللوحات الشعرية كما هو الحال في الشعر المهجري، وإن اختلف البناء الخارجي للنص، مع التنويع في البناء الفني والعاطفي، من أجل إظهار التأثير المطلوب.

ونقف مع أجزاء من قصيدة للشاعر، حيث أعتقل جزءٌ منها عندما تمَّ اعتقاله، وهي بعنوان "مشاريع الخناجر":

في عالم الشهداءِ كانت لي زيارهْ

ناديتُ أطفالَ الحجارهْ

رفّتْ عصافيرُ الطفولةِ كالملائكةِ التي حطت على

باب المغارهْ

جاؤوا كأسرابِ الحمام براءةً تنضو طهارهْ

جاؤوا حقائبُهم على أكتافهم

وقلوبُهم ملأى حرارهْ

ودماؤهم

فوق المراييل التي ما جفَّ بوحُ أريجها عطرًا

ولا عدِمَتْ نضارهْ

طفلٌ يقبلني... ويسألني

فتحرقني المرارهْ

ويعودُ يسألني إذا بَعثتْ

معلمةُ الرياض له الدفاترَ والسكاكرَ والمساطرَ

أو "علامات الشطاره"

لا نقول بأن الشاعر يعيش الخيالات، ولكن لننظر إليه كيف تفتق ذهنه عن هذا التواصل مع شهداء الحجارة، إنه لا يريدنا أن ننساهم، بل يريد أن نخلدهم من أجل أن يرسموا الطريق للأجيال القادمة، هذه اللوحة الواقعية تبرز شفافية الشاعر، وعمق المأساة في آن واحد، فمشاعر الأسى تكمن في كونهم أطفالاً، ومازالوا يدرسون في رياض للأطفال، فهذه مراييلهم مازالت مخضبة بالدماء، وعيونهم ترنو للغد.

وهكذا يتضح لنا من تتبع الصور التي ساقها الشاعر، وإن كانت تحمل روح الخيال، القيمة الحقيقية لهذا اللون من الشعر، خاصة وأن الفكرة التي أبرزها الشاعر متميزة في تناولها، وعرضها والتنسيق في تكوين التجربة،من خلال اعتماده على بنية فكرية مترابطة، مما عكس بنية النص الفنية، إضافة لما حملته من قيم إيحائية عالية، ترتبط بالانفعال الشعري.

وتتفاعل المأساة في وجدان الشاعر، فيظهر من بين الشهداء الذين ذهب إليهم، طفل يحمل الرصاصات التي أطلقت عليه كذكرى لمن يتبجحون بأنهم حضاريون في معاملاتهم:

ويجيء طفلٌ حاملاً في جيبه - ذكرى-

رصاصاتِ الحضارهْ...

يدنو.. يُقَبِّلُني ويسألني إذا ما حمَّلتني

أمُّهُ قُبَلاً ويسأل كيفَ حالُ الأهلِ

والأصحابِ... والأحبابِ

يسألُ عن سلامةِ كل زاويةٍ وحارهْ

وبأنه يشتاقُ للحضن الذي

يعطيه دفئًا.. وحليبًا.. وحنانًا بغزارهْ

الخيوط التي رسمها الشاعر، وربطها برباط الوطن، تغلق أمامنا أبواب الاستسلام، فمن خلال الموجات الرومانسية الثورية التي ساقها، تعبيرًا عن الرفض والانتماء على السواء، رفضٌ للواقع الذي يحمل الدم والرصاص، وانتماءٌ للوطن والأرض، والشوارع، فأراد الشاعر من خلال هذا الربط المتنامي أن يخلق صورًا جديدة، مستعينًا بالواقع، وإن كان الواقع لم يكوّن إلا جزءًا بسيطًا في بنية الصورة، فكان اعتماده التامّ على المشاعر، والأحاسيس،فأبدع صورًا من صور، وهذا هو الإبداع والكشف، فحملت الصورة كثيرًا من الدلالات والإيحاءات.

هذا الطفل يمثل الكبرياء والشموخ، ويمثل وجدان الشاعر وعقله الباطني، ونقف هنا على مقطع صغير، لكنه يحمل الكثير من المعاني ذات الإبعاد الثورية، فماذا يقول الشاعر في هذا المقام:

قبّلتهُم

ودَّعْتُهُم

وعرفتها..سُبُلَ الفداءِ

تعيدُ للوطنِ اخضرارَهْ

الصورة التي رسمها الشاعر من الصور الوجدانية التي تنتمي إلى عالم الداخل، من أجل الحياة، والتضحية والفداء، بمعنى أنه يسوق إلينا أسلوبًا من أساليب النضال الذي يجب السير عليه، ونقف على المقطع الأخير من القصيدة المعتقلة:

شحذتْ نواجذها المقابرْ

ثقبُ الرصاصِ غدا سداسيًا

بصدر النرجس المغدور... في الجرح المكابرْ

ظمأ الدماءِ إلى الحياةِ على يراعةِ كلِّ شاعرْ

في خالقِ العملِ المظفرِ...

في مشاريع الخناجرْ

لقد تحوَّل الجسد الذي أطلق عليه الرصاص إلى أشكال سداسية تشبه النجمة التي يضعونها على العلم، وهذه الملاحظة التي ساقها الشاعر تحمل رسالة إدانة صريحة إلى الصهاينة، وتخرجهم من خلف الغلاف الذي يختفون وراءه.

ولقد استطاع الشاعر من خلال هذا الخيال الواقعي خلقَ بناء لغوي فني موضوعي، يستمد مكوناته من عناصر الصورة، مستعينًا بالواقع الخارجي، وإن كان التأثير النفسي على الصورة أكثر من الواقع الخارجي، وهذا راجع إلى الانفعالات التي صاحبت هذا الخيال الواقعي.

• • •

ونقف على قصيدة أخرى ننقل أجزاء منها بعنوان " عمر والذئاب " يقول:

خبرٌ... خبرْ
خبرٌ....خبرْ
كالرّعدِ دوَّى وانتشرْ
هُرعَ الرجالُ مُقَنَّعينَ... مُلَثَّمينَ
وراءَ قطعان الذئابِ
على حذرْ

صورة التكرار جاءت هنا في مكانها، لتتناسب مع نقل الخبر، نابع من تفاعل الشاعر تمامًا مع التجربة، وقد بعث الإلحاح بالتكرار روحًا متوقدة لدى الشباب، فالجميع استعد للمواجهة دون خوف أو وجل، وهذا يسوقنا إلى إبراز روح الحماس عند

أبناء فلسطين لمقاومة المحتل، "الذئاب"، وهو حافز على المواجهة والتحدي، لينقلنا الشاعر بعد إعلان الخبر لما سيحدث بعد ذلك:

سَدّوا المساجدَ والمعاهدَ
والكنائسَ والمدارسَ
صادروا ضوءَ القمرْ
ذئبٌ يهاجم روضةَ الأطفالِ
ينهشُ لحمَهم
والويلُ من ذئب كَسَرْ
ذئبٌ على كتفيه صاروخٌ
وذئبٌ بندقيتة توزّع من رصاص الموتِ
أنواعَ الصورْ
فسلاحُهم
فقأ العيونَ.. وحطم الأطرافَ
وامتلأت بقتلانا الحُفرْ
فاهتزّ في الأرض الحجرْ
قفزَ الحجرْ
صاحَ الحجرْ
خذني سلاحَكَ
إن سرَّ الله موضوعٌ بأوهى من حجرْ

إن أول ما نلاحظه بعد قراءة لتلك الأسطر الواقعية التي جعلت الحجر ينطق، وهذا هو الزمان الذي أنطق الحجر، ولو ذكر الشاعر مبررًا واحدًا لكفى، فكيف به يسوق صورًا مسَّت الديانات والحياة وأزهقت الأرواح، وامتلأت القبور بأجساد الأبرياء من الأطفال والشيوخ، والنساء، فربما يكون للحجر تأثيرٌ أقوى من الأسلحة التي يحملونها.

اعتمد الشاعر في نقل الصور الكثيرة التي تضمنها كل سطر، على الدفقات الشعرية البسيطة لتتناسب مع وقع الخبر، فالأمر لا يحتاج إلى إطالة وإسهاب، بل يحتاج إلى نقلات سريعة، فكانت الأفعال لتتناسب مع الحدث.

ولو تتبعنا لفظة "الحجر" في الأسطر السابقة لوجدنا أنه البطل الحقيقي فيها، فقد تكرر مرَّات عديدة، من خلال التجسيد المتميز الذي أبرزه، فتارة اهتز، وتارة قفز، وتارة أخرى صاح، ورابعة خذني، وجميعها جاءت لتبرز القيمة الحقيقية للحجر، في محاولة إلى إعادة سيرته الأولى، وهذا يذكرنا بأبرهة الحبشي عندما أراد هدم الكعبة، فكانت الحجارة من سجيل.

وننتقل إلى المقطع الأخير من القصيدة التي اعتقل منها الكثير، وما هذه الأسطر إلا ما تبقى في الذاكرة:

خطرٌ... خطرْ

خطرٌ... خطرْ

صاح الشبابُ

تجمعوا.. نقلوا مواقعَهم كعاصفةٍ تزمجرُ

بالبروقِ

وبالرعودِ

وبالمطرْ

في الشارع الخلفيّ

مجموعاتهم نصبتْ حواجزَ من إطاراتٍ مؤجَّجةٍ

وأكوامِ الحجرْ

سدّتْ على بعض الذئاب الدربَ

فانفجرتْ تراوغهم.. فتعوي

من لهيب النفط يشويها

فتبحثُ عن مفرْ...

شريطٌ من الصور متصلٌ ببعضه البعض يظهر إلينا صورة ما يجري، وربما البعض يقول بأن الشاعر يعكس الواقع كما هو، ولكن نقول بأن الشاعر أضاف إلى مهنته مهنة أخرى، وهي تأريخ الواقع شعرًا، وما نقله الواقع بعد تحويله إلى لغة منطوقة، إنما ليعبِّر عن صور الصراع المختلفة مع العدو،

ويبرز صورة التلاحم بين أبناء الوطن الواحد ضد السلطة العسكرية الإسرائيلية، فنحن مع شاعر يستخدم حواسَّه جميعها في إبراز الصورة، وموظفًا مشاعره لخدمة العمل الفني الذي يبدعه، مستعينًا بالموسيقى باعتبارها عاملاً مؤثرًا من عوامل التأثير الجمالي والنفسي، وكذلك البنية الفنية للنص، فتتناسب الحروف مع الانفعالات، والكلمات مع الأحاسيس، والنص مع التموجات الانفعالية.

ثم يعرض إلينا الشاعر كيف تكون المواجهة :

ضربوا على الفارّين طوقًا من سعيرٍ... من شررْ
فأصابَ قطعانَ الذئابِ الخوفُ
والهلعُ المحنظلُ والخَوَرْ
هبّ الرصاصُ يمزق اللحمَ المباحَ
لمن طغى...
ولمن كفرْ....

الذي يبرز لنا في هذا المقام بأن الشاعر ابتعد عن لغة الخوف والبكاء، واستند فيما يقول على ما يراه من أبناء شعبه، على التحدي والمواجهة، ومن هنا يمكننا القول بأن هذا الشعر، أو الشعر المعاصر بعامة نفض عنه لباس الخوف والعويل، إلى

لغة جديدة تتناسب مع المرحلة، لأنه لم يجد في تلك اللغة ما يرجع الأوطان، ومن هنا كان اعتمادُ الشاعر إبراز كيف دبَّ الخوَر في الجنود، أما الشعب فقد تصدى للرصاص فسقط عمر برصاص الذئاب:

بعد الظهيرة عاد أبطالُ الحجارةِ

يحملون النصرَ في موتِ عمَرْ.....

لم يكن الشاعر خياليًا، ولا يريد أن يبرز موقفًا دراميًا، بقدر ما يريد فعلاً أن يبرز الواقع بصورته الحقيقية، وبالتالي يعكس مشاعر الناس جميعهم، من خلال استشهاد "عمر"....

وربما تكون القصيدة التالية واحدة من القصائد التي كانت السبب في معاناته الجسدية وتقييد حريته من خلال السجن والإقامة الجبرية داخل منزله، يقول: (إلى الرقيب العسكري الذي يحاول خنق كلمتي بعدم إجازة نشرها) وهي بعنوان "حرفي ... والرّقابة":

عجبًا : لأمرك يا رقابه !!

صوتي يُحاصَرُ خلف حنجرتي

يطارَدُ مثل عصفورٍ على أشجار غابه

ما كان حرفي ذات يوم يا رقابةُ كالذبابة

حرفي وديعٌ كالخرافِ على ميادينِي نقيٌّ

كابتهالات الربابة

حرفي نظيفٌ كالسحابة

لكنه سيظل عزمًا كالرصاصةِ

ذائدًا عن حوضهِ يحمي رحابَه

لغة الشاعر عزم متوقد، يستخدمها في الدفاع عن ذاته ووجوده وكينونته كإنسان، مستعينًا بالتشبيهات لإبراز تأثير الصورة ووقعها على النفس، ورغم أن الشاعر يعيش حالة من الصراع النفسي، إلا أنه لم ينس أن يوظف الكلمة التوظيف الأمثل ومن ثمّ حشده لكثير من المعاني ذات الدلالات النفسية البعيدة الأثر في النفس، فهو لا يسوق لنا تجربة ذاتية فقط، وإنما أخرجها عن دائرتها إلى العامية، فالموقف رغم انتمائه للشاعر إلا أنه يمكن أن يتكرر مع غيره، وبالتالي يسوق لنا تجربته التي من الممكن أن تنسحب على الآخرين.

أسمعتَ يومًا عن عصابة ؟؟

تخشى الحروفَ تخيفها لغةُ الخطابة ؟؟

فالحرفُ

مهما قيّدوهُ... وعذبوهُ

يظلُّ يستمري عذابَه..

ويظل غيمًا مثقلاً بالبرقِ

والغضبِ المؤججِ

فالشتاءُ يدقّ بابَه

ويظلُّ سفودًا بعينيْ ظالمٍ

ويردُّ للباغي حسابه

ليس عجبًا أن يكون للحرف تأثيرُه الأكبرُ من الرصاصة، فالرصاصة تقتل، ولكن الحرف ينتقل من إنسان إلى آخر، وبه تفتح أشرعة للنضال، فكم من قصيدة قيلت داخل المعتقلات وكان لها تأثير كبير في تأجيج مشاعر النقمة للمحتل، وكم من شهيد أقدم على الشهادة منفردًا، وهنا يحضرني قول أحد القادة العسكريين الكبار قوله: لو أن كل فلسطيني قرأ قصيدة فدوى طوقان " آهات أمام شباك التصاريح لأنبت سبعة مقاتلين "، ولكن إذا استطاعوا اعتقال الجسد، فإنهم لن يستطيعوا اعتقال الفكر، وما إبرازه لهذا الموقف من أجل إظهار موقف بطولي ضد القوات الإسرائيلية، بقدر ما يريد أن يكشف زيف حقيقتهم التي يتبجحون بها أمام العالم، بأنهم دولة "الديمقراطية".. ولكن هل استسلم شاعرنا لمثل هذه المحاولات؟

عجبًا لحاكِمنا؟!

يخافُ النورَ.. يفقدُ ذاتهُ في الشمسِ

يُعييهِ التساؤلُ و الإجابة

عجبًا !!

إذا غنيته شعرًا

أصابته الكآبة

وأضاع عند حدود مملكتي صوابَه

شعري...

يثير جنونَ حاكِمنا

فيستعدي على حرفي كلابه

وكلابُ حاكمِنا : رَقابه

وكلابُ حاكمِنا : رَقابه

وإذا كان الشعر اعترافًا وتعبيرًا عن خلجات النفس، فإنه يعايشنا تجربته التي خاضها مع الرقيب والحاكم، كواحدة من تجاربه المتعددة، وقد رأيناه كيف أخرج مخزون الحقد من خلال اغتيال الكلمة على يد هذا الرقيب.

هذا اللون من القصائد السياسية يحمل في مضامينه معاني ودلالات كبيرة تخرج من دائرتها التي ذكرها الشاعر، إلى دائرة الاضطهاد الفكري، وتحجيم دور العقل، وصياغته بما يريد الرقيب فقط، وهذا يبرز بجلاء كيف يعامل الصهاينة المثقفين والمفكرين من أبناء الشعب الفلسطيني.

وقد تناول الشاعر في الجزء الأول من كتابه "في قفص الاتهام" وعلى مدى مائة صفحة؛ الأوامر التي صدرت باعتقاله، وما صحبها من قرارات ومرافعات ومداولات ومحاكمات، أمَّا الجزء الأخير من الكتاب الديوان، فقد ضمّ ست قصائد للشاعر قالها في معتقل "الجلمة" في١٥-٦-١٩٩٠، وقصائد أخرى تضامنية لكل من د. جمال قعوار، وادمون شحاده، وعطاالله جبر، وسهيل سليم محاميد، وسامر خير، وأرفق مقالتين لكل من الكاتبة المصرية "فريدة النقاش" التي تمثل وجهًا وطنيًا مصريًا مشرّفًا في كتاباتها ومنهجها وفكرها وسلوكها، وللكاتبة "رجاء بكريه" مقالتان تظهران تضامنها مع الشاعر.

أما القصيدة الخامسة يقول فيها:

أيها الحرفُ الذي أعطى علومًا وشموسًا

ونجومًا حين أزهرْ

أيها الحرفُ الذي أصبحتَ في عصر الزنى

الدوليّ خنجرْ

طاردوني، أخذوني من صغاري

لم أقبّلهم وما أعطيتهم قبل وَداعي لعبةً،

قطعةَ سكرْ

فتشوا بيتي، ثيابي، كلَّ سفرٍ كلَّ دفترْ

قلبوا الدنيا ، يريدون دليلاً

والدليلُ المرتجى في الصدر عشقٌ يتفجّرْ

عاشقًا أرضي سأبقى

عاشقًا أهلي سأبقى

لستُ أكْسَرْ

لستُ أكسرْ

.....

أيها "الحلاّج" هل تسمعُ صوتًا ليس

يُقهرْ ؟؟

أيها "الحلاج" أدعوك من التنين

فاسمع قصّةَ الضوءِ المكسَّرْ

من بلاد اللبنِ الأسودِ والشهدِ الذي

أصبح مُرًّا وتخثرْ

.....

وضعوا السلاسل في يديّا ،

أخذوهما نظارتيّا

قالوا : إلى التحقيق وانهالوا بطوفانٍ

عليّا..... !!

• • • • •

أدخِلتُ في قفصٍ بحجم حذاء جنديٍّ

مُضامْ

من كوّةٍ في الباب يأتينا الطعامْ

من يأكلُ الخبزَ المُقدَّدَ والمُغمَّسَ

بالرّغامْ ؟؟

ما زار عينيَّ الكرى

فالنسرُ في قفصٍ حديديٍّ ينامْ

في الأرض ثقبٌ، منه تأتينا الروائحُ

والمكارةُ والزكامْ

شكرًا لأجهزة الظلامْ

شكرًا لأجهزة الظلامْ

• • • • •

لم تكن حريةُ التعبير في ليل الخنا

إلا سرابًا يتموّرْ

أيها الحلمُ المبعثرْ

طِرْ إلى قلبي فعُشُّ القلبِ أخضرْ...

هذه خمس قصائد للشاعر أوردناها لنقف على أربع حقائق:

- الأولى : تتمثل في إظهار أساليب كبت الحريات في بلد "الديمقراطية".

- والثانية : إبراز التفكير الضحل للسلطة الحاكمة التي تجعلهم يعتقلون الكلمة لخوفهم منها.

- أما الثالثة : لنبرز كيف مورست أساليبُ القمع التعسفيّ على شاعرنا.

- والأخيرة : التحدي والمواجهة والنصر.

وتعتبر هذه القصائدُ - بالفعل - صرخاتٍ مُدَوِّيَةً غيرَ مستسلمة، ولا خائفة، متحديةً غيرَ مستكينة، لا يعرف الهوان طريقه إلى معانيها، وإنما تتمثل فيها القوة رغم بساطة عرضها وهذا راجع إلى الصِّدق الذي يكتنف كل ألفاظ النص.

وننتقل بعد ذلك إلى دراسة أخرى للشاعر، ومن خلالها نسلط الضوء على قصيدة واحدة من كل ديوان، من دواوينه التي صدرت حتى الآن، مخالفين المنهج الذي سرنا عليه من البداية، لنتتبع صورة الشاعر ومنهجه وتفكيره وانتماءه الوطني لكل الأرض الفلسطينية...

ومن ديوان "مأساة القرن الضّليل" نقف على قصيدة بعنوان "أغنية لبلادي" ألقاها الشاعر في مؤتمر الدفاع عن الأرض الذي انعقد في مدينة سخنين في ١٤-٢-١٩٧٦ (تمهيدًا ليوم الأرض في ٣٠-٣-١٩٧٦) :

أغفو على اسمكِ يا بلادي ... وأضمُّ حبّكِ في فؤادي
إني أحبُّكِ في دمي ... قدَرًا يعزِّزُ بي عنادي
أهفو أقبِّلُ كلَّ شبرٍ ... في السهول وفي الوهادِ
أشتاقُ أن أنهلَّ ماءً ... يرتوي بيَ كلُّ صادِ
أو أن أكونَ النورَ يغـ ... ـسلُ وجهَ أرضي من فسادِ
لو كنت عصفوراً يحَوِّمُ ... يرتمي في ظلِّ وادِ
لعشقتُ أزهارَ الجـ ... ـليلِ تضوعُ من أعطافِ شادِ

تتجلى الرومانسية في الأبيات السابقة بكل معانيها، ممزوجة بوطنية الشاعر، فهو يعبِّر عن حبِّه لوطنه، مستعينًا بالطبيعة كعادة الرومانسيين في هذا المقام، وهذا الحب الذي أظهره

خلف الصيغ الفعلية ناتج عن وحشة الغربة التي يشعر بأنه سيعيشها نتيجة مصادرة الأراضي الفلسطينية وتهويدها. ولننظر إليه في الألفاظ التي ساقها مع إيحاءاتها " أغفو، أحبّك، أهفو، أشتاق، أعشق " هذا التزاحم في اللفظ فرَضَه الواقع، ولم يكن للشاعر دخل فيه، وإنما تحركت في داخله مشاعر الوجد والحنين، لتصوغ لنا ما يختلج في صدره، وقد ذهب به خياله إلى أبعد ما يمكن أن يتصور، لقد تمنى أن يكون عصفورًا ليتنقل بين أغصان الجليل، ولكنه لم يعلم بأنه لو تحقق له ذلك، فلن يستطع، لأنهم يقتلون الحياة في الحياة.

زيتـــونتي افتقـــدتْ حبيبًـــا ... ضـــاعَ في ليـــل الســـوادِ
والبرتقـــالُ يمـــوتُ حزنًـــا ... يلعـــنُ القـــدَرَ الرمـــادي
واشـــتاقَ بَيـــدرُنا لمـــن ... جلبـــوا غـــلالاً مـــن حصـــادِ
سُـــمّارُهُ أصـــواتهم ... في سَـــمْعِ قريتِنـــا تنـــادي
لم أنسَـــهم يـــا ريـــحُ رغـــمَ ... الـــدمع والـــدّمِ والبعـــادِ
غـــدُهم هنـــاك يلفُّـــهُ ... الآتـــي بـــأثواب الحـــدادِ
ســـكنوا دمـــي، مـــن خـــافقي ... أعطيـــتهم دفءَ المهـــادِ
لا ارتحْـــتَ يـــا جفـــني! أحتضـــنهم ... في المنـــامِ و في السُّـــهادِ
مـــا للضـــمير كعـــاهرٍ ... داسَـــت نـــواميسَ الرّشـــادِ
يُشـــرى يُبـــاعُ كمـــومسٍ ... جَوّالـــةٍ بـــين الأيـــادي
بـــئسَ الضـــميرُ إذا بغـــى ... وإذا ارتضـــى حكـــمَ الزنـــادِ

لقد اتخذ الشاعر من خلال الحنين إلى الأرض، وما تنبته فيها، مبعثًا للتحدي وعدم الاستسلام، فحذَر من التفريط بها، والتنازل عن شبر واحد منها، فالرِّضى بحكم الدخلاء، كمن يرضى بالتنازل عن عرض، وهل فينا من يقبل ذلك؟.

هذه اللغة التي استخدمها الشاعر، تناولها شعراء المهجر، من خلال الحنين إلى الأوطان، ولكن الفارق هنا يكمن في أنهم هاجروا لأسباب شخصية، أما الشاعر فإن هجرته روحية، وهي أخطر من السابقة، لهذا ركز الشاعر على عدم التفريط بها.

ويتابع الشاعر إبراز حبِّه وحنينه إلى الوطن من خلال الجزء الأخير من القصيدة:

أغفو على اسمكِ يا بلادي ... وأضمُّ رسمكِ في فؤادي

أنا من جليلكِ خنجرٌ ... يرتاحُ في صدر العوادي

أنا شوكةُ الصُّبار تدْ ... مي حلقَ من يبغي ازدرادي

شفتايَ باسمكِ تلهجا ... نِ كعاشقٍ في كل نادِ

وعلى هُدى الأجدادِ سِرْتُ ... أحبّ أرضي صِنوَ ضادي

هذا السّوادُ غبارُ صيفٍ ... في جبينِ الشمسِ بادِ

يا أيها الإعصارُ منكَ ... عقيدتي وبك اعتقادي

سَلِّمْ عليهم عبْرَ خط الشـ ... ـوكِ شُدَّ على الأيادي

فغدا خيولُ الفجر تمسحُ ... كلَّ جرحٍ يا بلادي!

ربما يكون للموسيقى دورٌ كبيرٌ في الوقوف على الألفاظ التي ساقها الشاعر للتعبير عن الفكرة، ولِمَ لا وللموسيقى دورٌ أساسيٌّ في بنية الكلمة، وإظهار الانفعالات الكامنة داخل نفس الشاعر، ومن خلالها تبرز الكلمات التي تمنح القصيدة بُعدها المطلوب، وإذا حاولنا في هذا المقام استقراء الجزء السابق، والنص، فإننا نجد اعتماد الشاعر على الألفاظ ذات الخصائص الصوتية التي تتناسب مع حالة اللاوعي التي يعيشها الشاعر، ومن هذه الوسائل أيضًا، اعتماده على التنويع الصوتي في إبراز الفكرة، ما بين تقريري، وانفعالي، وندائي، وخبري.

إذن نحن أمام شاعر ينتقي برغم حالة اللاوعي- ألفاظه لتناسبَ الموسيقى والحدث، ولو تتبعنا النص تمحيصًا، فسنجد الشاعر قد ربط الحنين للوطن برباط التحدي والمواجهة.

• • •

أما ديوان "دروب ملتهبة" فنقف على قصيدة بعنوان "رسالة إلى شهداء يوم الأرض" حيث يستخدم الشاعر قافية "الدال" وهذا الحرف يُعتبر من الأصوات الانفجارية، والقصيدة بكاملها انفجاراتٌ من الدماء، وثوراتٌ داخلية ناتجة عن إرهاصات متراكمة عبر رحلة من العذابات، وما زالت.

الصورة التي ينقلها لنا الشاعر واقعية مستمدة من ميدان المعركة، حيث بدأت رحلة التصدي التي نادى بها الشاعر في القصيدة السابقة، من أجل الأرض، وهل هناك أغلى من الأرض!، وتحتاج إلى التضحيات والدماء:

هـــذي دمـــاؤكَ يـــا شـــهيدي تســـمو منـــائرَ في وجـــودي
مـــن كـــل قطـــرةِ عَنـــدَمٍ لمعـــت ســـيوفُ ابـــن الوليـــدِ
مـــا أطهـــرَ الـــدَّمَ حـــين يُسْـــ ـــفكُ في الـــدفاع وفي الصّـــمودِ
مـــا مـــاتَ أبنـــاءُ الجليـــل بـــل اســـتكانوا في الخلـــودِ
مـــا مـــات شـــعبٌ شـــامخٌ أقـــوى مـــن القـــدَرِ العنيـــدِ
شـــعبٌ يخـــالُ المَـــوتَ عُرْسًـــا في الـــدفاع عـــن الوجـــودِ

كما نرى فلقد اتخذ الشاعر - كغيره من الشعراء- من الموت خلودًا، ومن الدماء دروبًا مضاءة، فما أعظم من أن تسيل الدماء من أجل الوطن، وهاهم أبناء الجليل يراقبون الأمر، دون استكانة، وإذا كانت صيغة المبالغة المعنوية في قوله "أقوى من القدر" أدَّت وظيفتها الكاملة في هذا المقام، فلقد كان هدف الشاعر منها الترهيب، وبث روح الحميّة في النفوس، من أجل الأرض. إننا هنا أمام شعب عاشق لتراب الأرض، يفهم معنى التضحية، ويقبل عليها دون تفكير، ومن أجل هذا فإن الموت أو الشهادة تتحول إلى عرس فلسطيني، وكم من الأعراس أقيمت

على ثرى الأرض، ومازالت العروس تنتظر من يضحي أكثر، فالأرض ثمنها غالٍ هذه اللوحة لا تتكرر إلا في الشعر الفلسطيني، وربما ينفرد بها، وها هي عبارة "يا أم الشهيد زغردي" موّالاً حقيقيًا في التراث الشعبي الفلسطيني بعد أن كان أغنية.

ولا أبتعد كثيرًا إذا قلنا بأن تناوُلَ الشاعر لشخصية خالد بن الوليد، ليس لضرورة القافية، بل لأن خالدًا يمثل بسيفه علاقة خاصة فيما جرى على الساحة الإسلامية زمن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وما استلهامه لهذه الشخصية إلا ليبرز هذه العلاقة، ويربط الماضي الإسلامي بالحاضر والواقع، لوجود علاقة مشابهة من وجهة نظر الشاعر.

وينادي على الأرض، ليجسد فيها صورة الإنسان، والحبيب والعاشق:

يــــا أرضُ ! إن ناديتِنـــــا ... لوجــــدتِنا عنــــد العهـــودِ
لوجــدتِنا في السّــهل في الـــ ... ـــوادي ومــا فـــوقَ النجـــودِ
لوجـــدتِنا في كــلِّ عاصــفةٍ ... لنـــــا عــــزمُ الرّعــــودِ
يـــا أرضُ ! بعــدَ الله عنــدي، ... يــــا دمــــائيَ في وريـــــدي

المشاعر التي يسوقها إلينا الشاعر تظهر إحساسه بفقد الأرض وهو هنا يطمئنها، بأننا على العهود، وأننا سنلبي النداء لحظة

المناداة، هذه الصرخات التي تحنو قليلاً كلما ذكر اسم الوطن من خلال الأساليب التي يسوقها، تبرز الحرقة والأسى على الوطن، وما لغة الحزن هذه إلا نتيجة الصراع النفسي الذي يعكس رؤى ابتعدت عن الخيالية لتركن إلى دائرة الواقعية، هذا الصراع النفسي والعقائدي والحضاري، سيكون الغلبة لمن لهم الحق فيه، لهؤلاء الذين يدافعون عن الوطن دون استكانة وهوادة.

ويتابع الشاعر داليته الانفجارية، وتدور حول موقف إنساني متميز:

يــا حــاملاً علــمَ السَّــلامِ	ألا كففــتَ عــن الوعيــدِ
يُســراك تحمــلُ وردةً	وتميــتُ بــاليمنى وليــدي
قلــتم لنــا: كونــوا جسـورَ السِّــ	ــلمِ في زمــن الصّــدودِ
مــاذا نقــول لإخــوةٍ	في خيمــةٍ عــبرَ الحــدودِ
أنقــول: تسْــرق أرضــنا؟	أنقــولُ نحيــا كالعبيــدِ؟
أنقــول: نضــربُ كاليتــامى	حــولَ مائــدةِ الجحــودِ؟

السلام القائم على الغدر مرفوض، ولكننا نقبل بالسلام الحقيقي، الذي يعيد الحق إلى نصابه، ويعيد المهجّرين إلى أوطانهم، لينعموا بخيرات بلادهم لا أن يعيشوا عيشة العبيد.

لقد اعتمد الشاعر في كشف غدر اليهود على أساليب المراوغة التي يستخدمها، والتي هي جزء من عقيدتهم منذ الأزل، فهم ينادون بالسلام، ومن طرف آخر، يقتلون الناس، فكيف يمكن أن يتفق ذلك؟؟

ويواصل رحلته مع الأرض:

هـذي دمـاؤكَ يـا شـهيدي!! عطـرٌ علـى أرض الحـدودِ
أنـا لا أخـافُ الظـالمينَ ولا جنـازيرَ القيـودِ
أنـا لا أخـافُ بريـقَ خنجرهـ ـم ولا هَـوْلَ الحديـدِ
فـالحقّ أقـوى مـن سلاسِـ ـلِهم ومـن بطـشِ الجنـودِ

قوة الحق التي اعتمد عليها الشاعر تستطيع أن تواجه جبروت الاحتلال، وظلم المحتلين، هذه القوة المعنوية تمثل منطلقًا للشهادة من أجل الحياة الحرة الكريمة، وطريقًا لا يسلكه إلا من يؤمن بأن هذه الأرض أرضه، وأرض أجداده، وما الدماء التي تسيل عليها إلا لتجديد العهد للأرض، ومواصلة التضحية والفداء من أجل استعادتها.

هذه الصور المتلاحقة تبرز حالة الانفجار الداخلي عند الشاعر، فلا هو يريد أن يسقط همومه فقط، ولا يريد أن يوقظ مشاعرنا، وإنما أراد أن يفتح مع العدو صراعًا مستمرًا لا ينتهي إلا بانتهائه، ولننظر إليه كيف يصوِّر إلينا صورة الشهيد "هذي دماؤك عطرٌ".

ونصل إلى المقطع الأخير من النص:

الأرضُ نـــــادت أهلـــــها	لبَّــى النــداءَ لهــا شـــهيدي
مَــنْ مــات يحصــدُه الرّصــا	صُ مـــــدافعا دونَ المُهـــــودِ
فالخلـــدُ منزلـــه الطهـــو	رُ وإن ثـــوى بـــين اللحـــودِ
صـــوتُ الشـــهيدِ مزمجـــرٌ	في سمـــع قاتِلِـــهِ الحقـــودِ:
الأرض أقـــوى مــــن ضـــلا	لِكمـــو وأبقـــى مـــن ثمـــودِ

حيث يرتكز فيه على ثلاثة محاور، الأول: نداء الأرض، والثاني: خلود الشهيد، والثالث: الحق أقوى من الباطل، ومن خلال الربط بينها صاغ الشاعر تلك المعاني بما يناسبها من ألفاظ، فعندما نادت الأرض، لم تجد إلا أهلها، فكان الشهيد، وعندما سقط الشهيد، وروى الأرض، فالخلود له، ومن خلاله برز الحق وزهق الباطل،.. هكذا نادت الأرض بلغة أهلها، متحدِّية كلَّ الأزمان والعصور.

في الأبيات السابقة لم نرَ الشاعر يقيم الدنيا ويقعدها لاشتقاق الصور والمعاني، وإنما استخدم الأسلوب المباشر من الألفاظ في إبراز الأثر الانفعالي للموقف الشعوري، فهو يعرف متى يوظف اللفظ توظيفًا يخرج عن دائرته إلى دائرة أخرى، لتتناسب والأثر النفسي الذي يُسقطه على اللفظ، لهذا استخدم الشاعر القافية الموحدة لما لها من تأثير نفسي عميق، ولتحدث

الأثر الانفعالي المطلوب في المتلقي، من خلال الموسيقى الخارجية، ومحاكاتها مع الموسيقى الداخلية من خلال الألفاظ والحروف والتدوير، إضافة إلى استخدامه التفاعيل البسيطة حتى يكون لها وقع وتأثير أعمق من التفاعيل الطويلة والتي تحتاج إلى وقت لنهاية الكلمة، وبالتالي تأثيرها يكون أكثر بطءًا.

• • •

وننتقل إلى قصيدة أخرى من ديوان "وطنٌ... وعبير" وقصيدة "خالد بن فتح الله الفلسطيني" وللعنوان معانٍ ودلالاتٌ كثيرة، منها المعنوي، ومنها الموضوعي، والواقعي، والقصيدة رسالة من شهيد إلى الوطن، يقول فيها:

أعودُ إليك يا وطني
أعودُ إليكْ
لألقِيَ كلَّ أشواقي
على كتفَيْكْ
أقبّلُ أرضَ أمجادي
وأملأ صدريَ المحزونَ عطرًا
من شذا زيتون أجدادي
أطيرُ على سهولكَ... أنتشي

في ذروةِ القننِ
أضمُّ ترابَكَ المهورَ من دمنا
إلى قلبي... إلى أذني
لأسمعَ وقعَ أقدامٍ على التاريخ تنزرعُ
لقد كانوا هنا أسيادَ هذي الدار فاقتلِعوا

كل لفظة ساقها الشاعر لها مخزون نفسي وعاطفي "أعود، أشواقي، كتفيك، أقبّل، صدري، عطرا، شذا، أنتشي، ترابك الدم، أقدام التاريخ" جميعها تظهر تأثير الكلمات ووقعها في النفس، إضافة إلى كونها رسالة من شهيد، فاستندت إلى طاقات ذاتية، وإيحائية في آن واحد لا يمكن أن تتوفر لإنسان عادي. الرسالة في حد ذاتها لها أثر انفعالي خاص، والألفاظ التي ساقها أيضًا لها أيضًا، أثر انفعالي خاص، ثمَّ ينتقل إلى الأماكن المقدسة، وهل هناك أكثر قداسة من مهد المسيح عليه السلام، وكذلك الأقصى، لما له من قداسة خاصة، وما ولوج الشاعر إلى هذين المكانين إلا من أجل تخفيف ما بصدره من ألم، علّه يجد الخلاص من خلالهما، فماذا يقول الشهيد:

أعودُ إليكَ يا مهدَ المسيحِ !!
وفي زوايا القلبِ أكداسٌ من الشّجَنِ
أعود إليك يا أقصى !!

لأطفئَ نارَ حقدهمو..بأهدابي

بماءِ العينِ.. بالبدنِ

مهد المسيح، والأقصى، يفتحان الكثير من الهموم والجراحات، ويغرقنا في بحر لجّيٍّ لا نهاية له، وما استناد الشهيد في رسالته إليهما إلا لبعث الهمم، ومحاولة بث روح العزيمة في النفوس، وما التقاط الشاعر لهما إلا لما يوحيه هذان المكانان المقدَّسان عند الديانتين المسيحية والإسلام.

ونقلنا الشاعر في المقطع التالي إلى التراث، في محاولة لتذكيرنا بالقادة ودورهم الكبير في إعادة الحق الضائع، مستندًا إلى التراث:

حصانك يا صلاحَ الدّينِ لم يَهِنِ..

ولم يَخنِ

جليلكِ يا فلسطيني

سيبقى بؤبؤَ العينينِ

رغم البُعدِ والشجَنِ

وقدسي - قلبُنا المكلومُ

ترفضُ شِرْعَةَ الوَثَنِ...

ما زال الشهيد متفائلاً، وما زال يمسك بزمام الأمور، لكنه استنطق التراث لتكون منهاجًا، فهذا صلاح الدين مازال راكبًا فرسه، ليجانس اللفظ بالزمن، ليوحي بالقوة الجسدية التي لابد منها في هذا الزمن، إضافة إلى القوة المعنوية التي يستند إليها.

لكن تكرار الشاعر لكلمة الجليل في أكثر من قصيدة، ومكان، ربما يبرز الصورة التي أصبح عليها الجليل من تهويد للأرض، وهجرة داخلية قسرية عنه، إلى مدن أخرى، ولننظر إليه في هذه الأسطر التي تعبِّر عن هذا المضمون:

لقد كانت لنا يافا

وبياراتها مجدولةُ الغصنِ

لقد كانت لنا حيفا...

وكرملها على كتفيْهِ هدْهدني

لقد كانت لنا عكا..

فهل أسوارُها يومًا ستُنكِرُني

وحطيني أتنساني...؟

استخدم الشاعر على لسان الشهيد الفعل الناسخ "كان" فهذا الفعل يتضمن معاني داخلية تبرز بأننا أصحاب حق في هذه المدن التي يربطها الشاعر بخراجها، وبما تشتهر به، والآن قد تغيّر الحال، وما استخدامه لهذا الفعل، إلا ليؤكد على أحقيتنا

بالأرض، وعليكم تحمل مسؤولية عودتها، فهذه أسوار عكا، وحطين شاهدتان على وجودي، ولست مجرد عابر على هذه الأرض.

ويقترب الشاعر من الوطن، ويعود إليه من المنفى، ومن معاناة الغربة الجسدية والروحية، بعد أن تشرّدنا في بلاد الله، لا نجد ما يروي ظمأنا، أو يقيت جسدنا:

أعودُ إليكَ يا وطني

من المنفى... من العفنِ...

تشرَّدْنا جياعًا في بلادِ اللهِ

من مدنٍ... إلى مدنِ

ودمعُ الأهلِ مثلَ العارضِ الهَتِنِ

عندما يذكر الشاعر المنفى تقتحم عليه الكثير من العبارات القاتلة والمشاعر الباكية، والذكريات الأليمة، فجاء تصويره للمنفى مفعمًا بكل المشاعر المأساوية.

يقول أبي:

لقد جاؤوا على السفنِ

فكان البحرُ يحملُ غلطةَ التاريخِ والزمنِ....

يلخص الشاعر على لسان الشهيد، ومن خلال حوار مع أبيه صورة هؤلاء الذين جاؤوا على السفن من كل حدب، ونزلوا بأرض لا يعرفونها، لتكون لهم أرضًا، وليتخذوها دولةً لهم على حساب شعب آخر.

شربْنا الذلّ يوميًا
وأطعَمْنا الصغارَ قذىً..
جمعْناهُ عن الدِّمنِ
لقد أُتخِمْتُ أنواعًا من المِحَن..
فوَجْهي يحملُ المأساةَ ألوانًا من الغضنِ
وأشكالاً من الوَهَنِ
ولكني..رضعتُ هواكَ يا وطني
فرُحْتَ تجوبُ في نبضي
براكينًا تفجِّرُني..

ورغم المعاناة القاسية التي عشناها جميعًا، صغارًا وكبارًا، ورغم علامات الأسى المحفورة في الوجوه، إلا أن هوى الوطن يدفعنا لتحمُّل أكثر من ذلك، هذه الثورية التي فجَّرها الشاعر من خلال الكلمة رغم انحسار المدّ الثوري الفعلي في ذلك الزمن، يثير فينا كل مشاعر البغض والكره لهؤلاء الأقوام الذين جاؤوا بخطأٍ تاريخي إلى الأراضي المقدسة، ليشهد العصر من خلالهم على جريمتهم النكراء.

هذه التراكيب في مجملها تنتمي إلى عالم الواقع، وإن ضمَّنها الكثير من الذكريات، وكأنها تنتمي إلى الخيال، لتنويع العاطفة، ولتحدث التأثير المطلوب في النفس ثمّ جاءت الوصية الأخيرة على لسان الشهيد لأمّه:

وأوصي أن تزغردَ لي...

وأن تدعو على الأشهادِ في العلنِ :

"يموتُ اليومَ لي ولدٌ على دربِ الرّجوعِ

فداكَ يا وطني"!!

لغة الشاعر تحمل نبضًا حيًا متجددًا، ورسالة إلى الأجيال القادمة لتحمل راية الجهاد والعودة إلى الوطن مهما كلف من ثمن، فحياة الغربة بما تحمله أحيانًا من مهانة وذلّ كفيلة بالإنسان أن يرجع إلى رشده، ويعود إلى الوطن، فهوية الفلسطيني لا تتحدَّد إلا بعودته إلى أرض أجداده وآبائه.

• • •

ومن ديوان " أنادي... أيها المنفى !!" نقف على قصيدة بعنوان " بيروت والمنفى " حيث يمثل هذا الزمن بداية مرحلة جديدة للنضال السياسي الفلسطيني:

أزِفَ الرَّحيلْ

لم يبقَ غيرُ رجولةِ الأبطالِ

والصّمْتِ الثقيلْ..

لم يبقَ غيرُ عيونِ أطفالٍ يفجِّرُها العويلْ....

مشاعر الحزن سيطرت على الألفاظ، وصاحَبَهُ حزنٌ مستمد من واقع الهجرة الجديدة للشعب الفلسطيني، إن حجم المأساة اليوم ربما يتوازى مع حجمها القديم، فسابقًا هاجر الشعب، واليوم هاجرت القيادة والجند، وبقي الشعب، وفي كلا الحالتين هجرة قاسية، وجاءت بعد معركة طويلة مع العدو الإسرائيلي وصلت إلى مشارف بيروت، وانتهت بعد اثنين وثمانين يومًا، برحيل القوات الفلسطينية إلى منافٍ جديدة..

هذه اللوحة تحمل ظلم القريب والبعيد، وتعبيرًا عن لحظة من لحظات التاريخ القاتم الأصم، ولم يقتصر الأمر على الرحيل، ولكن المأساة الحقيقية تكمن في أن القريب رفض استقبالنا:

رفضتْ بقاعُ العالمِ العربيّ ضيفًا نازفًا

جرحًا يسيلْ

صَغرَتْ بقاعُ العالمِ العربيِّ حتى أصبحتْ

مِسْخًا بحجمِ البَصْقةِ الصّفراءِ يلفظها عليلْ..

وإذا كانت الصراحة مؤلمة، فإن الأكثر إيلامًا، هو الجرح النازف الذي لم يجد مَن يضمِّده، حتى بعض الدول العربية التي خشيت من استقبال الفدائيين حتى لا تقابَل بجحودٍ من دول كبيرة، حتى أن الشاعر لم يستطع أن يسوق إلينا هذا المنظر بألفاظ عادية، وإنما تناول الموقف بألفاظ تناسب الموقف "مسخًا، البصقةُ الصفراء، العليل" وهذا يعني بأن الشاعر وصل به المقام إلى مقت الدول العربية التي أبت استقبال الجرحى، فالأرض ضاقت إلى حدّ أن البحر فتح أذرعه لاستقبال المناضلين:

الأرضُ ضاقتْ

مرحبًا بالبحرِ يحمِلنا إلى المنفى الطويلْ

وعيونُ حكامِ العروبةِ جامداتٌ

مثلَ بلورٍ صَقيلْ

لقد انصرف بعضُ حكام ذلك الزمن إلى متاع الدنيا كما يقول في الأسطر التي لم نذكرها، وبالتالي يحملهم مسؤولية صمتهم، ووقفتهم متفرجين على الدماء النازفات دون أن يحركوا ساكنا، فنحن نعيش حالةً من القهر النفسي والمعنوي تختلج في النفس جرّاء الصّد من الحكام، وأما الشعوب فلا تستطيع أن تفعلَ شيئًا إزاء هذا الموقف المأساوي.

بيروتُ!!
يا حبَّ المُقاتلِ والقتيلْ
إنا سَفَفنا من ترابكِ حين جُعنا
والحصارُ يدقُّ بابكِ
والبنادقُ والمدافعُ.. والمعاولُ.. والطبولْ..

يرجع الشاعر إلى الماضي بما يحمله من ذكريات وانتماء إلى الأرض والوطن، وكم حنت علينا، وكم صبرنا عليها في أحلك وأصعب الفترات، فالشاعر يبرز كيف كانت العلاقة بين الفدائي والمدينة قبل الغزو الإسرائيلي لها، وكيف انصهرا في بوتقة واحدة.

بيروتُ!!
يا درعَ المقاتلِ والقتيلْ
لم ننسَ دفءَ جناحِكِ الطاوي مآسينا
وأحزانَ التشرُّدِ والتمزقِ
والضياعِ المرِّ
والليلِ الثقيلْ
والعالمُ العربيُّ سكرانٌ يدغدغهُ الخمولْ

يواصلُ الشاعرُ تمجيدهَ لبيروت، فقد كانت الملاذَ الآمنَ لكل المقاتلين، في فترة كان العالم العربي يعيش في دِعَةٍ وسكون، ولكن صفة التعميم التي أطلقها الشاعر لا تتناسب والعالم العربي بعامة، فهناك من الشعوب من وقفت موقفًا بطوليًا في مواجهة حكوماتهم، ويتكرر التمجيد في الأسطر التالية، ولكن من زاوية أخرى :

بيروتُ !!
يا جرحَ المُقاتلِ والقتيلْ
يتراهنون على دِمانا في قصورِ الخزيِ
والشرفِ الذليلْ
يتقاسمون ثيابَ موتانا
وأشلاءَ الرجالِ... وأعينَ الأطفالِ
واللحمَ المُمَزقَ والمُعلقَ في الشوارع كالغسيلْ...

هذه الصرخاتُ الصريحةُ التي يُطلقها الشاعر لا يوجد فيها لون من التجنّي بقدر ما هي زفراتُ متألمٍ وباكٍ على الوضع العربي الحزين، لقد أخذ الوضع العربي من الشاعر مأخذه وجعله يعيش في متاهات من الألم، وما الألفاظ التي ساقها لدليل على المأساة، إن رائحة الدماء، والجثث التي مضى عليها زمن دون دفن تفوح من بين ثنايا الأسطر، حتى وصل الأمر إلى التمثيل بأجسادنا.

الشاعر نراه يعيش المأساة، ويتفاعل معها، فتبرعمت التجربة لديه لتصل إلى ذروتها من خلال المقطع السابق.

ويرجع الشاعر بفكره إلى ما قبل هذه الحرب القذرة، فيرى بيروت وطنَ الشعر والفن، تتحول مع الحرب إلى وطنٍ لأرباب الحشيش كما قال:

بيروتُ !!
يا معشوقةَ الشعراءِ والفنّ الأصيلْ
أبكي عليكِ ومنكِ يا ذاتَ الغدائرِ
والعيونِ السُّمرِ والقدّ الجميلْ
شرَّعْتِ أبوابَكِ للخصيانِ، أربابِ الحشيشِ
وسادةِ الأفيونِ والبترولِ
والمجدِ المزيَّفِ والدخيلْ
فلتشرئبّي اليومَ من بينِ الرّمادِ
ترَيْ تماسيحَ العروبةِ
تأكلُ الدولارَ...تشربُهُ
تعلّقهُ تمائمَ في الرِّقابِ
لكي تردّالكفرَ والعصيانَ عن شعبٍ بتولْ

لقد ركز الشاعر على بيروت باعتبارها عاصمة للفكر والفن زمن السلام، فكيف ستصبح عاصمة للحشيش والأفيون كما

يريد البعض لها أن تكون في زمن الحرب، هذا التركيز الذي استند الشاعر فيه إلى الواقع قد غيَّر صورة الحياة كاملة في هذه العاصمة، وأصبحت تعيش كأنها بقعة من شيكاغو.

بيروتُ !!
يا قديسةَ الغرباءِ تحملُ فوقَ كَتفيها
شعارَ الطهرِ والمجدِ الأثيلْ
بيروتُ!!
يا نجمًا يميلُ إلى الأفولْ
تخذوكِ جاريةً يضاجعُها لصوصُ العصرِ !
رعديدٌ... جَبانٌ أو عميلْ
بيروتُ فوقَ الشاطىءِ المغسولِ بالدَّمِ
تندبُ الأبطالَ إذ أزِفَ الرّحيلْ
وعلى سطوحِ بيوتِها
يبكي الحمامُ
ينوحُ
يرتعشُ الهديلْ
بيروتُ
هل تدرينَ أنِّ الشرقَ ماخورٌ رذيلْ ؟؟
وعروبتي!!
بينَ الموائدِ والسّكارى أصبحتْ جسداً هزيلْ ؟!

انتهج الشاعر في الأبيات السابقة أسلوبًا يوضح من خلاله بأن الأيدي الغريبة عاثت فسادًا في بيروت بعد أن كانت تتمتع بكل معاني الكرامة والحرية والطهر، فهذه الدماء التي سالت، وهذه الأرض التي تخضبت بدماء الشهداء تبكي رجالها الذين رُحِّلوا عنها، فعندما رصد المدينة، تناول ما حدث لها من منطلق الواقع، والحقيقة، ومن المواقف البطولية للشعب اللبناني والتفافه حول القيادة الفلسطينية، ورغم ما حلَّ بالمدينة ستبقى المنارة الفكرية كما كانت سابقًا، وإذا كانت الصورة الشعرية جزءًا من بنية القصيدة الفنية، فإن الشاعر اعتمد عليها اعتمادًا بيّنا في الأسطر السابقة للوصول إلى الهدف الرئيسي.

ابتعد الشاعر عن التكرار، اللهم إلا عندما يبدأ بمرتكز جديد، يطالعنا الشاعر باسم المدينة "بيروت" وربما لا يكون تكرارًا في حدِّ ذاته، بقدر ما هو لفتٌ للانتباه إلى أن المدينة تمثل للشاعر الكثير من الإبعاد النفسية، مقارنة بين وضعين متقابلين، وابتعدت عن الاستطراد والاطراد، واقتضاب المعاني وتناقضها. فالتوظيف السليم للألفاظ لم يأتِ على حساب الموسيقى الداخلية حتى أن استخدام "اللام" وهي من الحروف البسيطة كقافية موحدة بين أسطر القصيدة.

التوازن الذي نراه في بنية القصيدة، في زمن اللاتوازن بالنسبة للحدث وتأثيره على الشاعر، يمثل إبداعا منهجيًا وفكريًا للشاعر.

ثم نفتح ديوان "أحزان المراكب الهائمة" ومع قصيدة "العشق والوطن" كواحدة من قصائد الديوان المتعددة التي تعبِّر عن وطنية الشاعر، والتزامه المنهجي الذي يسير عليه الشاعر:

بـــيني وبينـــكَ عشـــقٌ أيهـــا الـــوطنُ فـــالأرضُ أنـــتَ، وأنـــتَ الـــروحُ والبَـــدَنُ
بـــيني وبينـــكَ آمـــالٌ تشُـــدُّ بنـــا نحـــوَ الغـــدِ الباســـمِ الأيامُ، يـــا وطـــنُ!
نحـــن الصـــمودُ علـــى أرضٍ نُقدِّسُـــها والمَهْـــرُ مـــن دمِنـــا إن جـــارتِ المِحَـــنُ
في كـــلِّ يـــومٍ لنـــا عـــرسٌ وملحمـــةٌ لا نـــبرحُ الأرضَ مهمـــا يبلـــغُ الـــثمنُ
في كفـــر قاســـم، في ســـخنين يـــا وطـــني مـــات الرجـــالُ فمـــا هـــانوا ومـــا ذعنـــوا
في ضـــفتي عـــزمُ أهلـــي هـــوجُ عاصـــفةٍ أحـــرارُ غـــزةَ مـــا لانـــوا ومـــا جبُنـــوا
إنـــا لشـــعبٌ كمـــاةٌ لا نبـــادُ كمـــا بيـــدت شـــعوبٌ فزالـــت وامّحَـــتْ مُـــدُنُ

من القصائد التي تمثل العلاقة بين الإنسان والأرض، حيث افتتحها بالتخصيص والتجسيد عن طريق ضمير المتكلم، ليوحي بهذه العلاقة، مسترشدًا بالمواقف البطولية التي وقفناها، معرّجًا على المعارك "كفر قاسم" ليثبّت حقيقة هذا الانتماء والانصهار، مُبْرزا المواقف البطولية لأهلنا في الضفة، وفي غزة، ثم مفاخرًا بتراثنا وأصالتنا، وبأننا لن نزول كما زالت أمم سابقة، هذه المعاني التي استند إليها الشاعر مصدرها الحقيقي هو الإنسان الفلسطيني، مستعينًا بكل إرثه الحضاري، ومذكرًا بالدماء التي سالت من أجل الوطن، وما هذا إلا دافعًا

لمواصلة الجهاد. الشاعر يعبِّر عن طاقات انفعالية وطنية داخلية مصدرها عشق الأرض، فلا نعجب من شعب يضحي من أجل أرضه، ولا نستغرب من دماء تسيل، دون أن يقلل من عزمه شيء على مواصلة الجهاد، لهذا استخدم أسلوب تقريري في عرض تلك الطاقات بعيدًا عن الخيال، لكنه أكثر كما رأينا من حشد الصور، بحيث أصبح لكل كلمة دلالة خاصة غير الدلالة التي تبرز في الكلمة ذاتها، وقد أبرز الصور جميعها عن طريق التضحية والتحدي والإصرار والفخر.

ويتابع الشاعر إبراز أسلوب العشق للأرض، حتى في الغربة القسرية:

لم نـنسَ عَبْـرَ حـدودِ النـارِ إخوَتنـا ... لم نـنسَ إن شـطّتِ الأطـلالُ والـوَكنُ

يـا خيمـةَ الأهـلِ في جـنبيَّ منزلُهـا ... فيهـا الألى وُلـدوا، منها الأُلى دُفنـوا

بـيني وبينـكَ عشـقٌ أيهـا الـوطنُ ... تـزدادُ جذوَتـه نـاراً ولا تهَـنُ

فـالحزنُ في جَنبـاتِ الصّـدرِ مُلتهـبٌ ... أنـى تلفـتَّ آثـارُ الألى طعنـوا

تبكـي الطيـورُ علـى الأطـلالِ نادبـةً ... شـتاتَ قـومٍ بـأرضٍ خلقهـا دَرَنُ

أبكـي بيوتـكِ يـا يافـا !! فكيـف غـدا ... أصـحابُها حيـث لا أرضٌ ولا سَـكنُ

أبكـي مسـاجدَ أهلـي كيـف أحرقهـا ... بـاغٍ ودَنسَـها رجْـسٌ بـه رَعَـنُ

أرثـي كنـائسَ كـم يسـطو فيسـرقها ... قـومٌ تتـارٌ، فـلا يَثنيهُمـو رَسَـنُ

مأساة الاغتراب التي يسوقها الشاعر، إنما هي جزءٌ من المأساة العامة، فقد تحوَّلت المدينة إلى خيمة خارجَ الوطن، ليتخذ من معاناة الخيمة وغربتها صرخاتٍ مدوّيةً، وبكاءً على الإطلال، وكأننا أمام شاعر أندلسي يبكي كنائس، ويرثي مساجد، ودور علم، ومدارس ومعاهد، هذا الصراخ ليس لضياع الأرض فقط، وإنما للمواقف السلبية لكثير من الدول تجاه ما يحدث.

هذه الثورة العارمة التي اجتاحت الأبيات، تذكرنا بالإرث الضائع لبلاد المسلمين، وما يحدث في فلسطين ما هو إلا سلسلة لهذا الضياع، ولكن الشاعر لم يذكر ذلك إلا من أجل إلهاب الحمية في النفوس عامة، وإيقاظ المشاعر النائمة، لسدّ الطريق عن مدن أخرى، وإرجاع ما تم اغتصابه.

حاول الشاعر تحريك مشاعرنا من خلال الطير الباكي، والمنازل الباكية والمساجد والكنائس، علَّ ذلك يكون دافعًا لوقفة جامعة في مواجهة هذا الاحتلال، لكن الحزن الذي يسري في النفوس، والذي أبرزه الشاعر لا يمكنه أن يقدِّم شيئًا في هذا الزمن، ولا يمكنه أن يعيد أرضًا، ولا يخلق واقعًا مغايرًا عن واقع الاحتلال، فالمأساة عميقة، والجرح غائر، ولننظر إليه في هذا المقام:

إن تسـألِ الأرضَ في حطـينَ عـن شـهُبٍ غنـىّ وزغـردَ في أسـيافِها الطعَـنُ

مـاذا أقـولُ لهـا والـدمعُ يزجرُنـي فكيـفَ تنـداحُ عـن سـاحاتها الحُصُـنُ

بـئسَ الزمـانُ زمـانٌ يُسـتذلُّ بـه أسـيادُ أرضٍ ويعلـو الغاصـبُ العَفِـنُ

هـذي بـلادي بـلادُ الشـهدِ يجرَعـهُ مسـتوطنٌ جَشِـعٌ في صـدرهِ ضَـغنُ

أمّـا بَنوهـا فـلا مـاءٌ ولا شـجرٌ فالضِّـرْعُ جـفَّ فـلا شـهدٌ ولا لَـبَنُ

يتساءل الشاعر عن العدالة، وعن الحق كيف ضاع في هذا الزمان، وكيف تملك مَنْ لا حقَّ له بالتملك، ليأتي المستوطن يحمل في نفسه كل الحقد، وينفثه في أصحاب الأرض، ويطردهم منها.

اللغة الدرامية الحزينة التي يسوقها الشاعر من خلال أسلوب احتلال واغتصاب الأرض، تكمُنُ في قدرته على نقل الحقائق ساطعة بعيدة عن الغموض والمبالغة، وربما يكون هذا من أحد أسباب اعتقاله، ولهذا يجعلنا نعيش حالة من عدم الاتزان، فالأرض ضاعت، وعلينا أن نبحث عن السبيل لاسترجاعها، وهناك الكثير من الشواهد ما تثبت حقنا في الأرض.

أرضُ الشـتاتِ غـدت نـاراً مؤجَّجَـةً لا تبصـرُ العـينُ فيهـا أو تعـي الأذنُ

لـو كـان فـوقَ الثـرى لـي مـوطنٌ علـمٌ لانـداحَ هـولُ الليـالي واسـتوى الحَجَـنُ

لـو كـان لـي فـوقَ صـدرِ الأرضِ منطلـقٌ لارتـدَّ بـاغٍ وعـادَ الغائـبُ القمَـنُ

من الطبيعي أن تصبح أرض الغربة والشتات نارًا، وجزءًا من المعاناة، ونفاجأ باستخدام "لو" وكأنه يردُّ أسباب ما حدث لعدم تمتع الشعب الفلسطيني بدولة كغيره من شعوب العالم، وربما يكون ذلك من الأسباب التي دعت إسرائيل للقيام بهذا العمل، ولكن حتى وإن لم يكن للشعب الفلسطيني دولة، فهل يحق لأي قوى غاشمة أن تستحل أرضًا بالقوة؟!.

كـــلُّ الحلـــولِ بـــدونِ الأهـــلِ واهيـــةٌ ... فـــأيّ حـــلٍّ بـــدوني حَشْـــوُهُ فِـــتَنُ

منـــا القيـــاداتُ لا مـــن ثلـــةٍ دَعـــرتْ ... هـــل الزنـــاةُ علـــى الأخـــلاقِ تـــؤْتمَنُ؟

يـــا قـــادةَ العـــربِ الأشـــباهِ مـــا فتئَـــتْ ... عيـــونكم مُغضـــياتٍ فوقهـــا غضَـــنُ

تســـتمرؤون هـــوانَ الـــذلِّ في زمـــنٍ ... أصـــابكم رَمَـــدٌ أو شـــفكم وَهـــنُ

فلتمضـــغوا القاتَ، ســـيحوا في مباهِجِـــه ... ولتشـــربوا الـــنفطَ خمـــرًا أيهـــا الـــوَثَنُ

إنّـــا أبـــاةٌ ديـــارُ المجـــدِ منزلنـــا ... أمَّـــا الصِّـــغارُ فـــأنتم أيّهـــا الشَّـــعنُ

اعتمادُ الشاعر على التاريخ في إبراز الأفكار السابقة واضح، وذلك من خلال الحلول التي طرحت دون أصحاب المشكلة الحقيقيين، فماذا كانت نتيجتها ؟ فالمتفردين بالحلول، وكأنهم نوّاب عن شعب يمتلك إرثًا حضاريًا وتاريخيًا أكثر من أولئكَ الذين نصَّبوا أنفسهم بديلاً عن الشعب الفلسطيني، وبالتالي مصير كل الحلول إلى سراب، فأصحاب المشكلة موجودون، وهم الأقدر على معرفة ما ينفعهم ويضرّهم، وهم الذين يعانون

داخل وخارج الوطن، لهذا فكل الحلول التي يمكن أن تطرح مرفوضة بدونهم، وما لم تكفل أعادة الحق إلى نصابه.

هذه الصُّوَرُ التي ساقها إلينا الشاعر مطابقة للواقع، أو للإدراك البصري والسمعي، وما هذه الثورة في الأبيات إلا انعكاسًا لهذه الرؤية، وما تحامله الشديد على الزعماء إلا نتيجة لهذا الصراع الخارجي، وما القصيدة إلا صراعًا داخليًا وخارجيًا على السواء.

وحسبي أن الشاعر ارتكز في هذا المقام إلى عبارة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" حتى تؤدي الصورة ذاتها، ولتكون على صلة وثيقة بالأفكار.

مهما يطولُ زمانُ الغدرِ يا وطني!! فعَوْدَةُ الحقِّ بالإصرار ترتهَنُ
طالَ الظلامُ فهل شمسٌ تضيء لنا دربَ الخلاصِ فتعلي رايتي القَننُ
دربُ الخلاص رجالي السُّمرُ تعرفهُ إنْ ضاقَ بَرٌّ فهذا البحرُ يا سُفنُ
هذي فلسطينُ لا أرضى بها بدلاً حتى يُواري رُفاتي الصَّمتُ والجَننُ

والشاعر يمثل في رأيي روح التفاؤل حتى عندما تدْلهمُّ الأمور، فهو لا يؤمن بخلاص يأتي من الخارج، ولا من حاملي الرايات البيضاء، ولا من النيام من البشر، وإنما من الداخل، وهم الذين يعرفون الوطن حق المعرفة، لهذا مهما طال زمان الغدر والهجر، والترحيل، فإن الوطن مفتوح الذراعين ينتظر في لهفة أهله الحقيقيين، لأنه المكان الوحيد الذي سيضم رفاتي.

تلك الأبيات لها أكثر من دلالة:

- الأولى: بأن الأمل موجود مهما طال زمان الغدر...
- والثانية: أن الخلاص سيأتي من أبناء الوطن الحقيقيين...
- والثالثة: عدم قبول وطن بديل عن الوطن الأصلي "فلسطين"

هذه الدلالات وغيرها تحمل في طيَّاتها الروح الوطنية، بكل معناها.

أما لغة القصيدة فتقترب من لغة الخطابة، فقد ساقها إلينا بألفاظ قوية ومعبرة ومؤثرة، تتناسب وموقف خطابي، فقد حشد إليها الكثير من البراهين والذكريات والأحداث الكفيلة بتغطية الفكرة التي نبعت من العشق للوطن، ولهذا كان الإقناع والتسليم بها أمرًا طبيعيًا، ولهذا نرى المضمون قد ألبسه الكثير من الرؤى مما جعله حلية يراها الناس ليتعاملوا معها.

وإذا كانت العاطفة أحد عناصر النص الأدبي، وهي التي تميزه عن العلمي مثلاً، فقد انطلقت من تجربة شعرية عميقة، برزت بشكل واضح في الأبيات من خلال الصدق الموضوعي الذي انتهجه الشاعر في الأبيات.

• • •

وفي ديوان " الدَّم والميلاد " نقف على قصيدة بعنوان " أرضي تثور" هذه القصيدة قيلت بمناسبة مرور عشرين عامًا على الاحتلال الإسرائيلي لبقية فلسطين:

أرضـــي عليــكَ تثــورُ.. تلتهــبُ عشــرين عامًــا مــا خبــا غضَــبُ

عشـــرين عامًـــا كنـــت تحـــرقني وأنـــا لمرجـــلِ حِقـــدِكم حَطَــبُ

عشـــرين عامًـــا ســـيفكم عملـــتْ شـــفراتهُ حتـــى ارتـــوى الـــتربُ

وتصــــوَّرون نظــــامَكم نِعَمًــــا للنـــاس وهـــو الزّيـــف والكـــذِبُ

نظر الشاعر إلى الواقع الذي يعيشه، فكان متأملاً أن يراه بعكس الصورة الأليمة التي هي عليه، فقد وجد الجرح قد غار، والألم يزداد، والمعاناة تضرب في أعماق الوطن، فجاءت ألفاظه مُحمّلةً بهذا الهم " تثور، تحرق، حقد، سيف، شفرات، الزيف، الكذب " فأرضه تلتهم وتحتضر، وشعبه يعاني، وقد كان لتلك الألفاظ التي ساقها دلالاتها المعنوية، من خلال استعمالها الموفق، وإن كان العصر الذي نعيشه لا ينتمي إلى السيف.

فالشاعر كما نرى يتفاعل مع الواقع، وينظر إلى كل القضايا التي يجب أن تكون في صالح المواطن، وإذا بها تكون ضدّه، من أجل تحقيق أهداف وأطماع خاصة للمحتل، ولقد أراد الشاعر أن يفتح من خلال القصيدة كوّة من العذابات التي

يعيشها أبناء فلسطين، فربما يفيق البعض من رشده، وابتعد الشاعر في هذا المقام عن الرموز التي من شأنها قتل الحياة في قصيدة واقعية لا يمكنها أن تحتمل أكثر من اللفظ ذاته من خلال معناه، أو معناه من خلال إيحاءاته.

الدم الطاهر الذي يُراق على مدار عشرين عامًا، اتخذه الشاعر ليستضيء من خلاله، وبنوره أفاق الحياة، ويدين أيضًا أساليب الاحتلال ضد الطغمة التي آلت على نفسها تعذيب الشعب الفلسطيني.

ويتابع الشاعر من خلال أسلوبه المباشر عرض أسلوب ثورة الأرض بعد أن أبرز الأسباب والدواعي لهذه الثورة:

هـــذا لســـانك مَـــن يُصـــدِّقهُ ... هـــل يغســـلُ الـــدَّمَ حـــاكمٌ ذَرِبُ؟
أنـــــا لا أُدَجَّـــــنُ إن أردتَ ولا ... أجثـــو إذا مـــا شـــاءَ مغتصِـــبُ
فانسـفْ بيـوتَ الزِّنـكِ يـا بطـلاً ... فَلَـكَ العَتـادُ وجَحْفـلٌ لجـبُ
واقتـــلْ صـــغاري في مخـــيَّمِهم ... فالقتـــلُ في أعـــرافِكم أربُ
تتقيّـــأُ الغربـــاءَ أرضُ أبـــي ... أرضـــي لهـــا أمٌّ هنـــا وأبُ
هـــذي قوافلنـــا نقـــدِّمُها ... مـــوتُ الرجـــالِ خلـــودَهُم يَهـــبُ
لـــن يهـــدأ الغليـــانُ في عَضُـــدي ... والحِقـــدُ في جنبيـــكَ والوَصَـــبُ

القصيدةُ التي أمامنا جزءٌ من الواقع حيث تبرز إحساسَه المفرط، بالقضايا المصيرية فيسوق إلينا الوقائع كما هو ليكون المبرر موجودًا لثورة الشعب ضد الاحتلال الصهيوني، هذه التجربة الإنسانية التي يسوقها لا تهدف إلى إظهار مثالب المحتل، بقدر ما يريد منها إظهار الوجه الحقيقي للاحتلال.

ويقرّ الشاعر من خلال الأبيات، بأن الظلمَ والقسوةَ والبطشَ والدماءَ لن يستمر، لأن كل شيء إلى زوال، لأن عشقَ الشاعر إلى الحياة الكريمة، والإنسان جعله إنسانيًا في تطلعاته وأفكاره.

يـــا مســـجدي! أعيـــاكَ ظلمهمـــو ... فـــالحزنُ حـــطّ عليـــكَ والكـــأبُ
فيّ كـــلِّ يـــومٍ يصـــلبونَ هنـــا ... عيســـى فمـــا ارتعشـــوا ومـــا رَهِبـــوا
لا يُرتجـــى خُلـــقٌ ولا أمـــلٌ ... مـــن أمـــةٍ أخلاقهـــا عَطـــبُ

ولقد مسَّ الشاعر مشاعر المسلم من خلال المسجد الأقصى، فجعل منه قضية أساسية يلبس رداءها ووجهها، ومن خلالها يعيش كل أبعادها وتأثيراتها، وكذلك من عيسى عليه السلام رداء الطهر، ومن خلالهما يوحي إلينا بحبه الشديد لبلاده، ويتمسك بكل تراب الأرض، متخذًا من هذين المكانين منطلقًا لكل الأراضي الفلسطينية باعتبارهما يمثلان كل فلسطين.

إن الطريق إلى فلسطين بكاملها يأتي عن طريق المسجد الأقصى، والأماكن المسيحية في مواجهة المحتل، لأن القضية

التي يتعامل معها الشاعر في هذا المقام ينتقل بها إلى الإنسان الفلسطيني.

يـــا قـــادةً شـــحذتْ نواجـــذها	الويـــلُ مـــن أهلـــي إذا ركبـــوا
لا أشـــتهي دمَكـــم ومـــا ارتفعـــتْ	كفّـــي لتضـــربَ غـــيرَ مَـــن سَـــلبوا
عشـــرين حـــولاً تهـــدُرون دمـــي	لم يرتـــوِ ظمـــأٌ ولا سَـــغبُ
حمّلـــتمُ الأجيـــالَ وِزْرَ دمـــي	فحـــرقتمُ الأحـــلامَ يـــا جـــرُبُ
ووهبـــتمُ الأطفـــالَ إرْثَ دمٍ	أجســـادُهم نـــاءَتْ بمـــا وُهِبـــوا
أمـــلُ السّـــلامِ حكايـــةٌ صَـــدِئتْ	تغفـــو وتطـــوي حُلمَهـــا الكتـــبُ
رُدّوا الحقـــــوقَ إلى مرابِعهـــــا	حتـــامَ نستشـــري فـــنحترِبُ
خلـــقَ الفلســـطينيُّ مُعجـــزةً	فليشـــهدِ التـــاريخُ والحِقَـــبُ

الشاعر يُعلن في قصيدته بأن فلسطين لن تعود إلا بالنضال والفداء، ولذلك كانت الثورة، ورغم التوجع والألم الذي أظهره، فقد أبرز صورة التصميم والمواجهة ليس عشقًا لها ولا للدّماء، وإنما مع أولئك الذين استباحوا وسرقوا واغتصبوا، فتجلت إرادةُ التصميم والصمود والإصرار على التمسُّك بحقوقٍ لا يمكن أن تحطمَها أي قوة مهما بلغت من جبروت، لأسباب تتعلق بالذات الفلسطينية، وبحقه في أرضه، فالتاريخ شاهد، والذكريات مازالت عالقة في الأذهان ولابد من ردّ الحقوق إلى أصحابها، لصنع التاريخ الجديد.

وهنا تتجلى أمامنا قوة تحمُّل الشعب الفلسطيني وصبره على المحن المتتابعة، والضربات القوية التي تؤلم، ولكنه على ثقة كبيرة بأنه سيبني مجده القديم، ويعيد سيرة الوطن الأولى.

لقد مرَّ عقدان على الاحتلال ومازالت القوى الظالمة تمارس هوايتها على الشعب الفلسطيني دون هوادة، فيحاول الشاعر في هذه القصيدة أن يصور هذا الواقع بأسلوب جديد يعتمد فيه الصور المباشرة من خلال ترميز بسيط يستقيه من الواقع، فنراه خلال شحنها بطاقات جديدة أضفتْ على القصيدة بُعْدًا فكريًا بالإضافة لما للبعد العاطفي من تأثير.

• • •

ونقف هنا مع ديوان "ليكونَ لكم فيَّ سلام" وقصيدة بعنوان "العاشق والمطر" وهذه القصيدة رؤية جديدة في منهجه الحياتي والموضوعي الذي اختطه لنفسه حيث تجمعت في النص معاني المأساة التي يعيشها شعبه على مدى عقود طويلة، فالشاعر ينقل بصدق وأمانة كيف تجذّرت المأساة، وأخذت أبعادًا لا طاقة للإنسان بها في ظل دولة تعترف لنفسها بالديمقراطية.

والشاعر في هذه القصيدة، ومن خلال رؤيته يرى بأن تحرير فلسطين لابد وأن يتمّ، مهما اشتدت الخطوب، وادلهمّ الليل:

ودنا المطرْ

والضوءُ في قلبي انهمرْ

وأطلَّ من خلفِ الغيوبِ

الرعدُ والبرقُ المؤجَّجُ والمُدجَّجُ بالخطرْ

وتحرّكتْ في البحرِ أشرعةٌ

وفي الأرضِ الحجرْ

وتناثرتْ في الجوِّ أسرابُ الطيورِ

على حذرْ....

الشاعر عندما اقترب من الحياة اتخذ من الطبيعة مدخلاً له ورمَّز بلغة حانية بما أوحت به الألفاظ "المطر، الضوء، الرعد، البرق" وقابلها بـ"أشرعة، الحجر، الطيور"...

هذه الأسطر وما تليها تصور شدّة المأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني الذي سلبت منه كرامته، يوم سلبت أرضه، فقد غدا يعيش الهم في كل لحظة، ويعيش الخطر في دروب الأرض التي عليها نشأ:

ودنا المطرْ

ماتت بذورُ الوردِ في أرضي

وجفّ الضِّرعُ واحترقَ الزَّهرْ

إنّ الرصاصَ يئزّ.. يبحثُ عن رؤوسٍ

عن صدورٍ.. عن وطرْ....

هذه المقطوعة الصغيرة تعبِّر عن أقسى أنواع الاحتلال الذي حطَّم كل الآمال والتطلعات، وقتل الحياة فلا عجب بعد ذلك أن نجده يستخدم الرصاص ليزيله عن الأرض، إن كل كلمة ساقها الشاعر تختزن الكثير من الطاقات المؤلمة والصور المأساوية التي لا يمكن أن يحتملها الإنسان في أي بقعة من العالم.

إن التضحيات الواجبة للإيمان المطلق بعدالة القضية هي التي ساقت أبناء الشعب الفلسطيني للمواجهة والتحدي والوقوف في وجه المحتل، رغم الرصاص الذي ينهمر:

أضحى الرصاصُ لسانَ هذا العَصْرِ

يرسمُ في لحومِ الناسِ أنواعَ الصُّوَرْ

هذه الرصاصةُ صُمِّمَتْ للعينِ

تختطفُ النظرْ

ورصاصةٌ أخرى

تقبِّل مثلَ أفعى

قلبَ طفلٍ في ربيعِ العُمْرِ

يلهو بالأُكرْ....

الشاعر كعادته لا يدَّخرُ وسعًا في معظم قصائده، يوقظ المشاعر من خلال التذكير بأعمال العنف التي تمارس على الشعب الفلسطيني، وما ساقه في الأسطر السابقة إلا جزءًا من هذه الممارسات، وحيث أن الأطفال يمثلون البراءة في العالم، إلا أنهم في فلسطين يظهرون بصورة أكثر قوة، وهذا نابع من الظروف التي فرضها المحتل عليهم.

ولننظر إلى ممارسات العدو عندما يستخدم الرصاص، باعتباره اللغة الوحيدة التي يفهمها، لأنه في الواقع لا يفهم لغة السلام والوئام والحب، فهذه رصاصة فقأ بها عين طفل، وأخرى مزّق بها جسد شيخ كبير، وجَنينًا داخل رحم أمّه.

ويتابع الشاعر هذه اللوحة من خلال زاوية أخرى:

ماذا أغني؟؟
والجنودُ على صُدورِ الناسِ يمتصّونَ
أرواحَ البَشرْ
ماذا أغني؟؟
والرصاصُ الأرعنُ النافثُ أحقادَ الشرَرْ
يمتصُّ نسْغَ حياةِ أغصانِ الشجَرْ
محروقةٌ أرضي
على أحداقِها يطفو الضَّياعُ
وحُزنُ أحزانِ الكَدَرْ...

الشاعر في الأسطر السابقة شديد التأثر رغم ما يعرفه عن المحتل، فهذا الغضب العرم تحوّل في ذات الفلسطيني إلى بغض لا ينتهي، ولا يمكن للإنسان أن يشعر بلذة الحياة طالما الرصاص يحصد أجساد البشر.

لقد برزت هذه الثورة العارمة من خلال الألفاظ الموحية التي ساقها إلينا، وما تحمله من انعكاسات للواقع، أبرزت عشق المحتل الصهيوني للرصاص والموت، وكأنه على حق فيما يقوم به الجنود، الرصاص، يمتص، الأرعن، النافث، الأحقاد، الشرر...."

وإذا أردنا أن نجد مبررًا لهذا، فإن الواقع هو خير مبرر لما يحدث، فالشاعر لا يتجنى، ولا يخاطب الوجدان، ولا يلهب الحماس من أجل إظهار بطولات معينة، وإنما الواقع أكبر دليل على ما يجعل الفلسطيني أكثر حنقًا على المحتل:

ماذا يقول الشعرُ والكلماتُ خافتةٌ

كهمسِ الضوْءِ ينزفهُ القمَرْ ؟؟

ماذا يقولُ الشعرُ

والكلماتُ أبلغها الحجرْ ؟؟

ماذا يقولُ العاشقُ الدّنِفُ المقيَّدُ بالسّلاسلِ

والبنادقِ والسّلاحِ المُبْتكرْ

ماذا يقولُ لأرضِهِ وترابهِ

ولسهلِهِ وهضابهِ

للماءِ غاضَ وجفَّ في مجرى النهرْ

ماذا يقولُ وسيفُ سيِّدِهِ الرقيبِ

يلوحُ.. يهبطُ كالقدَرْ

يجتاحُ... يغتصبُ الفِكَرْ؟؟

إذا كانت الكلمات لا تستطيع أن تصف الموقف، فمعنى هذا أن الموقف وصل إلى أقسى مرحلة من مراحل القهر والإذلال الفكري والجسدي، فهل الكلمات قادرة على تغيير الواقع، وهل الأفكار قادرة على لجم الرصاصات التي تنبعث من فوهة البنادق، فالمرارة والتوجع تصاحب كل كلمة نزفها رغم معرفته بعدم أهليتها لهذا الزمن، إنه يريد منا أن نواجه السلاح بالسلاح حتى نحقق الهدف من هذا النضال:

منذ اقتلعنا والجيادُ على سفرْ

تمشي على حدِّ السيوفِ

وبين حبّات المطرْ

وعيونها

ما أغمضتْ أجفانها

فالحُلمُ طيرٌ أفزعتهُ الحادثاتُ

ونكهةُ البارودِ والليلُ المحمّلُ باكتئابات الخَبَرْ

أهوى اللهيبَ إذا استعرْ

وأحبُّ عاشقَ زهرةٍ مسبيّةٍ

من أجل عينيها انتحرْ

يبقى نزيفُ النرجسِ المذبوحِ

يُهدينا الثمَرْ

والجرحُ في صَدْرِ البلابلِ مأتمُ الضوءِ

المُلوّنِ حين بعثرَهُ الجنودُ

على ترابي فانكسَرْ....

الشاعر هنا لا ينقل إلينا مشاعرَ عادية، بل يعيش ألمَ الغربة كما يعيشها كل فلسطينيّ خارج وطنه منتظرًا عودةً ظافرة إلى أحضان الوطن.

إن هذا الوطن هو الحياة والهمّ، وهو البداية والنهاية، وعذابات الأجيال السابقة واللاحقة، وآمال المستقبل من وحي الإرث التاريخي العظيم.

ونصل بالقصيدة إلى نهايتها بصورة من التفاؤل الذي عهدناهُ في الشاعر في أغلب قصائده:

يا عطرَ أرضي!!

يا ترابي !!

يا حجرْ !!

ما اجتاحَ إعصارٌ كرومَ بلادِنا

إلا تكسّرَ واندحَرْ

سيجيءُ بالأخبارِ يومٌ مُنتظرْ

رأينا في القصيدة صوتين، صوتَ الواقع من خلال صورة الفلسطيني، ودفاعه وأمله في تحقيق النصر، وصورةً مضادة تمثل الوجه الغريب عن الديار، وهو الوجه الصهيوني الذي يعيش على رائحة الدماء، هذا الصراع بين القوتين لابد وأن يأخذ مداه إلى أن يأخذ الحق مأخذه من الظالم.

والسؤال هنا هل استطاع الشاعر أن يُحدث الأثر الانفعالي من خلال القصيدة ؟

إن المدقق في بنية القصيدة من ناحية الشكل والمضمون، لابد وأن يشعر بأن الشاعر منح القصيدة من ذاته ومشاعره ورؤاه ما يجعل القصيدة تظهر بشكل مبدع، فأحدثت الأثر الانفعالي بدءًا بالعنوان مرورًا بالانسياب الفكري والتلاحم بين أجزاء الصور التي تآلفت بشكل واضح مما أبعد الشاعر عن تفتيت العناصر المكوِّنة للصورة، حتى رأينا تشابك الألفاظ ضمن مدلولات جديدة يمكنها التأثير في النفس.

لقد أبرز الشاعر في هذه القصيدة جانبًا كبيرًا من جوانب الحياة في المجتمع الفلسطيني، وأبرزَ صُوَرَ المعاناة بصدقٍ ضمن إطارٍ فنيٍّ وموضوعيٍّ مُبدع.

• • •

وننتقل إلى قصيدة أخرى من ديوان " آهٍ.. يا أسوار عكا !! " وهي بعنوان "زرقاء اليمامه" والمدقق في القصيدة يشعر بأن الشاعر يكتب تحت تأثير الهياج النفسي والعاطفي، وهستيريا السخط والتمرد والتسلخ والانسحاق.
هذه الكلمات تقدّمت ديوان الشاعر والقصيدة التي يقول فيها:

عاصفٌ حزني كأشواقِ الحمامة
كلُّ ما حولي حريقٌ
وخواءٌ... ورياءٌ
وانكفاءٌ... ودمامة
كلُّ ما حولي غبارٌ
وانكسارٌ... وانهيارٌ
إنه الحَمْلُ الذي أفضى
إلى الأوهامِ... والأحلامِ
في رأسِ النعامة

هذه الانعكاسات النفسية التي ساقها الشاعر، يحدِّد فيها أبعاد المأساة والرؤية الضبابية التي يعيشها وزفرات الألم تتلون بتغير الموقف والزمان.

إن هذا الموقف الذي يتفجر من الشاعر سببه الحب للأرض، وهو الذي يصنع الغد المشرق من خلال الإصرار وليس الاستسلام. إن كل ما حول الشاعر سراب، وانكسار وذلّ ومهانة، ولا يمكن أن يفضي إلى نهاية طبيعية، فقد رسم صورة صادقة للاستبداد بأسلوب سهل بسيط فيه كثير من المرارة ويعكس واقع الحياة الذي يعيشه الشعب الفلسطيني.

اكتبوا عن فارسٍ
أنكرَ بعدَ الكرِّ والفرِّ حُسامَه
اكتبوا عن شاعرٍ
أنكرَ في سوقِ الشعاراتِ كلامَه
أيّها القوسُ !! الذي
يعشقُ قبلَ الشدِّ والمدِّ سهامَه
هاكَ سَهمي!!
فأنا القوسُ الذي همّمَ عِشقُ
الأرضِ والأهلِ عظامَه
إنني الناعي

وحَوْلي كلهم أعمى ويدعو..!

إنما العمياءُ زرقاءُ اليمامة

الشاعر يبحث عن إنسانيته المنسحقة وحياته التي سُرقت منه، ووطنه الذي ضاع بين ركام الحياة، عله يجد في ذلك مخرجًا من هذا الواقع المُرّ.

إن الإنسان بدون وطن لا يمكنه أن يشعر بمتع الحياة، وتقلبات الزمان، ولذا نجد هذا الفلسطيني قد زرع وطنه في قلبه، لعيش حالة الانتماء التام لكل الوطن.

آهِ يا أحزانَ أهلي

يا بكاءَ الصخرِ.. يا مُرَّ المرارة

كلُّ ما حولي عيوبٌ... وثقوبٌ وقذارة

كُلّهم يحملُ في العُنقِ شعارَه

وينادي:

اتبعوني!!!

اتبعوني!!!

أولدُ اليومَ نبيًا

من دياجيرِ الدعارة

أحرسُ الفكرَ الفلسطينيَّ
في جوفِ محاره
أحسمُ الموقفَ
والموقفُ في قاموسِيَ الكاذبِ
ربحٌ وخسارة
آهِ يا أحزانَ أهلي !!
كلُّ ما حولي انخذالٌ وتجاره
كلُّ ما حولي
وجوهٌ... عاهراتٌ مستعارة

"آهِ يا أحزان أهلي !!!".. نقلنا الشاعر من خلال إحساسه بآلام أهله، ومعاناتهم، هذا التوجع مقترن بكل معاني الأسى الذي انسحب أيضًا على الجماد، فنحن نعيش تحت سلطة لا تعرف معنى للحياة، ولا قيمة للإنسان، فكانت تلك الصرخاتُ المُدَوِّيةُ تحملُ حالةً من الأسى الذي يعيشه الشاعر والأهل:

كِدتُ أنسى صوتَ أرضي
وصهيلَ الخيلِ في سهلِ المضاضَه
كِدتُ أنسى فارسًا
يأتي من الآلامِ
كي يفدي حياضَه

كِدتُ أنسى اسمي... ورسمي

وجذوري...وقبوري

لا غضاضَه !!

فأنا الآتي من المجهولِ

شوقًا ولهيبًا وانتفاضَه

أيّها الجمهورُ !!

هذا موقفي الباكي

على أطلالِ أخلاقِ العَهاره

لا تحاسِبْني!!

فإني شاعرٌ أعطى

ولم يأخذْ سوى

جَمْرِ الطهارة

في الأسطر السابقة نشعر بتبرم من الشاعر ناتج عن الواقع، فهذا الزمن الذي يعيشه يضيع فيه الحق، وتضيع فيه كل القيم والمثل الحقيقية، ويتحول فيه الإنسان إلى مجرد خيالات لا قيمة لها، فكأن الإنسان أصبح جسدًا بدون روح، أليس هذا الزمن هو الذي دفع الشاعر لينسى كل شيء.

فنحن إذن مع شاعر رومانسيّ حالم، ووطنيّ جارف، وقوميّ متوقد، وإنسانيّ عميق التأثير، يحملُ على عاتقه آلامَ الوطن،

وهمومَ الحياة، وعشقًا للموت من أجل الحياة الكريمة، وإصرارًا على التحدّي والمواجهة.

• • •

تلك هي رؤية متواضعة في مسيرةِ شاعرٍ متميزٍ في فكره، ومتفردٍ في إبداعِه، علنا استطعنا أن نوفيَه حقه، وما الدراسةُ التي بين أيدينا سوى نقطةٍ من بحر عطائه المتجدِّد فكرًا ومضمونًا ومنهجًا، ومازال الشاعرُ يبدعُ من مَعين الأرض والوطن، والتراث من أجل تحقيق الحرية المنشودة، والعدلِ المفقودِ في زمن الاعتقال الفكري، والأمل الضائع ومن خلال هذه الوقفة أمكننا أن نقفَ على بعض الحقائق:

١- صاحبُ قلمٍ متميز، وشاعريةٍ خصبة، ولغةٍ حادّة، ووطنيةٍ متأصِّلة، وإنسانيةٍ عارمة.

٢- الثورةُ في شعر الشاعر مبنيةٌ على منهجيّةٍ خاصّة بالشاعر، فهو لا يكرّرُ نفسه من خلال إصداراته، ولا يقلد الآخرين، وإنما مثقفٌ واعٍ، ودارسٌ لكل المدارس والاتجاهات المختلفة.

٣- شاعرٌ صاحبُ قلمٍ خاص، ومنهجيةٍ متميِّزة، مع تنوُّعٍ في الموضوعات، وفي الأفكار.

٤- لم يقفْ بشعره على لونٍ واحد، بل نوَّعَ في الشكل، فسار على بنية القصيدة العربية التقليدية، وقصيدة الشعر الحر، وغيرها من الأشكال المختلفة التي تطلبتها التجربة.

٥- النضالُ والثورةُ نتيجةٌ طبيعيةٌ للواقع، فهو لا يبتعد عن الواقع في رسم معالمه، وإبراز مؤثراته من خلال تفتيت العناصر لينقل إلى المتلقي كل ما يريد دون عناء، وإن كان الأمرُ أحيانًا يتطلب منا الوقوف طويلاً أمام إبداعاته.

-٦ يرصدُ من خلال شعره كلَّ الصوَر، كما يرصد كل المآسي التي حدثت وتحدث للشعب الفلسطيني مبتعدًا عن الغلو.

٧- إن ولادةَ إنسانٍ فلسطينيٍّ جديد من واقع الألم ظاهرةٌ تبرز التحدّي بكل صُوَره، والمواجهةَ بكل أنواعِها.

٨- يبقى الشاعرُ علامةً مضيئةً في دنيا الشعر، وأحدَ رموزِ التحدّي في مواجهةِ العدوّ الإسرائيلي.

هذا ومازال الشاعرُ يصدحُ بشعره الإنسانيّ الذي يمثلُ خروجَه إلى دنيا العالميةِ المحطةِ الفارقةِ في حياته.

عن كتاب :

إضاءات في الشعر الفلسطيني (١٩٩٨)